الباب الأول

عصر أبي الحسن اللخمي
المحيط والشخصية

الفصل الأول
الوضع السياسي

تمهيد :

عاش أبو الحسن اللخمي في عهد أهم سماته الاضطراب، وتلاحق الفتن على إفريقية والمغرب من داخل البلاد ومن خارجها. فقد عاصر الدولة الصنهاجية في مرحلة تبعيتها لمركز الخلافة الفاطمية بمصر، وعاصرها في عهد استقلالها عنها، وشاهد فتنة الأعراب، وهجومهم الكاسح على مدائن إفريقية وقراها، وتخريبهم للقيروان : عاصمة البلاد السياسية والعلمية.

وقد ابتدأت ولاية الصنهاجيين لإفريقية والمغرب في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وأول أمير منهم تولى الحكم نيابة عن الخليفة الفاطمي، هو يوسف بلكين بن زيري وكان ذلك سنة إحدى وستين وثلاثمائة (٣٦١هـ).

وتذكر كتب التاريخ أن الخليفة الفاطمي : المعز لدين الله، لما عزم على الرحيل إلى مصر استدعى يوسف بلكين وعرض عليه ولاية المغرب نيابة عنه، فاعتذر له، لكنه لم يزل يلح عليه ويرغبه حتى قبل، فأبدى المعز ارتياحه ووصل يوسف بالخلع والأكيسة الفاخرة، وكناه أبا الفتوح ولقبه بسيف الدولة، ورسم له الخطوط العريضة للسياسة العامة التي ينبغي نهجها في إفريقية وسائر بلاد المغرب.

وآخر وصيته له حين أراد وداعه : يوسف : إنْ نسيت شيئاً مما أوصيتك فلا تنس أربعة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن

البربر، ولا تول أحداً من إخوتك وبني عمك، فإنَّهم يرون بأنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوص بالحضر خيراً[1].

وبعد رحيل الخليفة الفاطمي إلى القاهرة باشر يوسف بلكين أمور الحكم وعزم على غزو المغرب لقطع علاقة الأمويين به، فجمع جيوشاً من الصنهاجيين زحف بهم نحو المغرب، وتمكن من هزم كثير من أمراء زناتة، ثم عاد إلى إفريقية ومات في الطريق سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة (٣٧٣هـ) وتولى الحكم بعده ابنه المنصور الذي كان واليا على أشير[2] وسار على نهج أبيه في السياسة العامة تجاه المغرب، لكنه كان ليناً يؤثر السلم على الحرب والرفق على العنف عكس أبيه وجده.

وصفه ابن أبي دينار بقوله: وكان رجلاً عاقلاً عفيفاً عن الدماء يحب الرفق في الأمور، فجبلت الناس على محبته ومهد الأمور بتدبيره وجلب القلوب بإعطائه وتبذيره ... وخرج من القيروان القضاة والأمناء ووجوه الناس قدر مائتي رجل لتهنئته بالملك وتعزيته في أبيه ...

ومما قال لهم: «إنَّ أبي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر وأنا لا آخذ أحداً إلا بالإحسان، ولا أشكر على هذا الملك إلا الله سبحانه»[3].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٠٦ . الحلل السندسية في الأخبار التونسية ٢/ ٦١ . والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٩٦ .

(٢) مدينة في جبال البربر بالمغرب مقابل بجاية في البر، كان أول من عمرها زيري بن مناد الصنهاجي. معجم البلدان ١/ ٢٠٢ .

(٣) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص: ٩٨ .

وقد دام حكم المنصور ثلاثة عشرة سنة، وبعد وفاته سنة ست وثمانين وثلاثمائة (٣٨٦هـ) قام بالملك ابنه باديس الذي تميزت فترة حكمه بحروب طاحنة بينه وبين أعمامه الذين انفصلوا عنه من جهة، وبينه وبين أمراء زناتة مثل زيري بن عطية وفلفل، من جهة أخرى.

فقد ولى أعمامه على بعض الأقاليم رجاء أن يحظى منهم بالدعم والمؤازرة أيام الفتن، لكنهم تخلفوا عنه وخذلوه فقاومهم مقاومة شديدة حتى كسر شوكتهم جميعاً.

كما ثار بالمغرب زيري بن عطية وزحف بجموع من الزناتيين على منطقة أشير التي كان عليها عم باديس: حماد بن المنصور، فبعث إليه باديس جيشاً عرمرماً بقيادة محمد بن العربي عامله على إفريقية، لكن زيري تمكن من إلحاق الهزيمة بابن العربي وجيشه، وظل محاصراً لأشير حتى خرج إليه باديس بنفسه، وأجلاه عنها إلى المغرب.

وقام بالمغرب أيضاً في هذه الفترة فلفل بن سعيد الزناتي وثار على بعض الولايات التابعة لباديس، وكانت بينهما حروب طاحنة آل الانتصار فيها أخيرا إلى باديس[١].

ولما استيقن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله قوة باديس وشجاعته، بعث إليه بهدية فاخرة تعبيراً عن رضاه بما يصنع، كما جاءه من قبله سجل لقبه فيه بنصير الدولة، كل ذلك من أجل أن يبقى باديس تابعاً للخلافة الفاطمية موالياً لها.

---

(١) الحلل السندسية في الأخبار التونسية ٢/ ٦٢-٦٣.

وقد كانت مجاملة الفاطميين لأمراء الدولة الصنهاجية في هذه المرحلة سياسة ظرفية فرضها عليهم ما كان يبديه الصنهاجيون أحياناً من رغبة في الانفصال عن الخلافة الأم.

وقد ظل باديس يقاوم الثوار ويلاحقهم في كل الأقاليم إلى أن أدركته الوفاة سنة ست وأربعمائة وهو في طريقه إلى مقاومة أمراء زناتة الثائرين بالمغرب(١).

وبعد وفاته عقدت البيعة لابنه المعز الذي كان عمره آنذاك لا يتجاوز ثماني سنوات.

وتعد فترة المعز لإفريقية من أطول فترات حكم الصنهاجيين بها، إذ دامت زهاء تسع وأربعين سنة، وهي مدة لم يبلغها أحد في الإمارة قبله ولا بعده من الصنهاجيين.

وخلال ولايته وقعت أحداث وتطورات لم تعرف لها الدولة الصنهاجية نظيراً في عهدها الطويل الذي دام قرنين من الزمن، من أهمها: انقسام الأسرة الحاكمة إلى قسمين، واستبداد كل منهما بإمارة خاصة، واستقلال الصنهاجيين عن الخلافة الفاطمية وخلعهم لطاعتها وتبعيتها، والقضاء على الوجود الفاطمي بإفريقية، وزحف الأعراب على إفريقية، وما نتج عنه من دمار وخراب لقراها ومدائنها.

وسأتناول هذه الأحداث بكيفية مختصرة مُركزاً على فصولها العامة التي تجلي الوضع وتقرب الصورة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٠٧، والمؤنس ١٠١-١٠٢ .

المبحث الأول

انقسام الدولة الصنهاجية وانفصالها عن الخلافة الفاطمية

المطلب الأول: انقسام الدولة الصنهاجية:

ظلت الدولة الصنهاجية - مذ تأسيسها - موحدة بالرغم من الاختلافات التي كانت تظهر بين الفينة والأخرى بين الأمراء والولاة، إلى أن جاء عهد المعز بن باديس فانقسم ملك صنهاجة إلى دولتين:

دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان.

ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة [1].

وقد بدأت بوادر الانقسام في عهد باديس بن المنصور حيث كان بينه وبين أخيه حماد أمير القلعة اختلاف حول بعض أقاليم المغرب، وجرى بينهما اقتتال مرير ذهب ضحيته آلاف من الزناتيين والصنهاجيين.

ولما توفي باديس وعهد الأمر إلى ابنه المعز، استغل عمه حماد صغر سنه فأعلن التمرد وأظهر الانفصال وزحف على المدن المجاورة للقلعة.

يقول ابن خلدون: ودخل حماد المسيلة وأشير واستعد للحرب وحاصر باغية وبلغ الخبر بذلك، فزحف المعز إليه وأفرج عن باغية، ولقيه فانهزم حماد وأسلم معسكره وقبض على أخيه إبراهيم، ونجا إلى القلعة، ورغب في

---

(١) القلعة: مدينة متوسطة بالمغرب الأدنى، كانت قاعدة لأمراء بني حماد الصنهاجيين. معجم البلدان ٤/ ٣٩٠.

الصلح فاستجيب على أن يبعث ولده ... ورفعت الحرب أوزارها من يومئذ واقتسموا المظلة، والتحموا بالأصهار وتفرق ملك صنهاجة إلى دولتين: دولة آل المنصور بن بلكين، أصحاب القيروان، ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة [(١)].

وقال ابن أبي دينار: وخرج عن طاعته عمه حماد بالمغرب وحاصر أشير فزحف إليه المعز بعساكر لا تحصى، وكانت بينهما وقعات وحروب انتصر فيها المعز على عمه، وآخر الحال رجع إلى الطاعة، وبعث ولده بكتاب يسأل فيه العفو عما سبق منه فعفا عنه[(٢)].

وبعد حصول العفو تم الصلح بينهما على أن يستقل حماد بالمسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من بلاد المغرب.

المطلب الثاني: انفصال الدولة الصنهاجية عن الخلافة الفاطمية:

إنَّ الخلافة الفاطمية بالرغم من نشوئها في إفريقية وبقائها بها أكثر من قرن- لم تستطع إقناع الشعب باعتناق مذهب التشيع، فقد سخرت سلطانها وجندت دعاتها وعلماءها لنشر مذهبها في ربوع إفريقية والمغرب، لكن كل ذلك لم ينفعها في استمالة العامة عن مذهب أهل السنة الذي كان فيهم متجذرا وكانوا لا يبغون عنه حولا مهما كلفهم ذلك من ثمن، ولم تكتسب من الأتباع في العقيدة سوى ثلة قليلة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٠ .

(٢) المؤنس ص: ١٠٣-١٠٤ .

فقد كان سكان إفريقية متضايقين بوجود الروافض وأتباع العبيديين ببلادهم وما غضوا الطرف عنهم إلا خوفاً من بطش السلطة الحاكمة.

وقد أدرك ذلك جيدا الأمراء الصنهاجيون الذين كانوا تابعين للفاطميين، لذلك راودهم التفكير بالانفصال منذ وقت مبكر من قيام دولتهم، ولمحوا له في كثير من مواقفهم، وظلوا يبحثون عن الفرصة المناسبة لقطع الصلة بالعبيديين، إلى أن جاء عهد المعز بن باديس فأعلن الاستقلال الشامل، وقطعت جميع الأواصر التي كانت تجمع الدولة الصنهاجية بالخلافة الفاطمية.

إنَّ مؤشرات الانفصال ظهرت في عهد المنصور بن بلكين، وقد عبر عن ذلك في أول كلمة له أمام الوفود التي جاءت لتهنئته بالملك حيث قال: إنَّ أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير[1].

وهذا التصريح أغضب الخليفة الفاطمي: العزيز بالله، لما فهم منه نوايا الانفصال، وأخذ يصطنع العراقل للمنصور ليضعف نفوذه في إفريقية، فقد أرسل داعياً له يسمى أبا الفهم الخرساني، إلى قبائل كتامة ليدعوهم إلى طاعته، ولما التفوا حوله كون منهم جيشاً كبيراً وقوي نفوذه بالمنطقة.

وحين أخبر المنصور الخليفة الفاطمي العزيز بالله بأمر أبي الفهم نصحه

---

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/ ٢٤٣.

بعدم التعرض له، فغضب المنصور وهاجم أبا الفهم وشتت جموعه. وعندما أدراك العزيز بالله فشل خطته عاد إلى سياسة الملاطفة، وجامل المنصور بهدية نفيسة [١].

ولما تولى المعز بن باديس الحكم أظهر نيته في الاستقلال أيضاً، وقد كان في بداية أمره لا يظهر القطيعة للفاطميين، غير أن مواقفه كانت تعبر أحياناً عن إرادة الانفصال، وكان الخليفة الفاطمي يدرك ذلك جيدا.

لذلك حاول استرضاءه بإطلاق لقب شرف الدولة عليه وإرسال مزيد من الهدايا إليه.

يقول ابن عذارى: وفي أواخر سنة سبع وأربعمائة (٤٠٧هـ) وصل المعز ابن باديس سجل من الحاكم خاطبه فيه بشرف الدولة ... [٢].

لكن المعز رغم إظهاره السرور بهذه الهدايا والألقاب فإنَّ عزمه على قطع الصلة بالفاطميين كان قرارا لا رجعة فيه، وكان ينتظر الفرصة المناسبة لإعلان ذلك، وقد احتفظ بالعلاقة مع الفاطميين على ما كان فيها من توتر وفتور إلى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة (٤٣٣هـ) وفي هذه السنة أعلن ولاءه للدولة العباسية وورد عليه عهد القائم بأمر الله العباسي [٣].

---

(١) المغرب الكبير ٢/ ٦٥٣-٦٥٤ .

(٢) البيان المغرب ١/ ٢٦٩ .

(٣) البيان المغرب ١/ ٢٧٥ ، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١١ .

ثم مضى في مشروع الاستقلال وأخذ يقطع كل ما له صلة بالفاطميين، ففي سنة أربعين وأربعمائة(٤٤٠هـ) أمر بأن يدعى على منابر إفريقية للعباس بن عبد المطلب، وتقطع دعوة الشيعة العبيديين فدعا الخطباء للخلفاء الأربعة وللعباس ولبقية العشرة[١].

وفي سنة إحدى وأربعين وأربعمائة أمر بتبديل سكة العبيديين وزوال أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم، وقرر عقوبة شديدة لمن وجد بحوزته دنانير تحمل أسماء بني عبيد، كما أمر بإحراق بنودهم وراياتهم[٢] فلم يعد هناك شيء يدل على ارتباط إفريقية بالخلافة الفاطمية.

وحين يئس المنتصر الفاطمي من عودة المعز إلى استئناف العلاقة به فكر في الانتقام منه، ومن دولة الصنهاجيين عموما، واستشار وزيره الحسن بن علي اليازوري في ذلك فأشار عليه بإعطاء الإذن لأعراب الصعيد ليجتازوا النيل، ومنحهم ما يفتحونه ويسيطرون عليه من بلاد المغرب، ودفعهم إلى محاربة الصنهاجيين، فاقتنع المستنصر بوجاهة هذا الرأي[٣].

---

(١) البيان المغرب ١/ ٢٧٧، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١١

(٢) البيان المغرب ١/ ٢٧٨-٢٧٩، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١١ .

(٣) المغرب الكبير ٢/ ٦٦٧ .

المبحث الثاني
دخول أعراب بني هلال
وما أعقب ذلك من الاضطرابات السياسية

المطلب الأول : دخول الأعراب إلى إفريقية وتخريبهم لقراها ومدنها :

كان هؤلاء الأعراب يسكنون صعيد مصر، وهم بطون من قبائل بني هلال وبني سليم، وكانوا مصدر شغب واضطراب في المنطقة، يعيشون على النهب والسطو والهجوم على القرى المجاورة والمارة الغرباء.

وقد جمعتهم الدولة الفاطمية في صعيد مصر لتضبط تحركاتهم ويسهل عليها مراقبتهم، ومنعتهم من عبور النيل حماية لسكان الحواضر من شرهم.

وحين أعلن المعز بن باديس انفصال الدولة الصنهاجية عن الخلافة الفاطمية لم يجد المستنصر بالله الفاطمي وسيلة للانتقام منه أفضل من إرسال هؤلاء الأعراب المتوحشين إلى بلاد المغرب، للاستيلاء على مدنه وقراه، وإسقاط حكم الصنهاجيين، أو إضعاف نفوذهم على الأقل.

وكانت خطة ناجحة أصابت كل أهدافها بدقة، وفي وقت وجيز وترتب عليها من النتائج أكثر مما كان الخليفة الفاطمي ينتظره ويريده، إذ بمجرد عبور هؤلاء الأعراب النيل بدأ النهب والتخريب في جسم الدولة الصنهاجية وبدأ فسادهم ينتشر في مدائن إفريقية وقراها انتشار النار في الهشيم.

ويظهر أن المعز بن باديس لم يكن على وعي بعقلية هؤلاء الأعراب

وبطبائعهم المجبولة على العصيان، واستمراء الدمار، وقد قاده إعجابه بشجاعتهم وما لاحظه من كثرة عددهم إلى التفكير في اتخاذهم جندا له ليتخلص من إخوانه وبني عمه الصنهاجيين الذين لم يكونوا محل ثقة عنده.

جاء في البيان المغرب: وأقاموا (أي الأعراب) بناحية برقة، ومضت الأيام على ذلك مدة، ثم قدم منهم مؤنس بن يحيى الريحاني على المعز، وكان المعز كارها لإخوانه صنهاجة محبا للاستبدال بهم حاقداً عليهم، ولم يكن يظهر ذلك لهم، فلطف عنده مؤنس هذا وكان سيداً في قومه شجاعاً عاقلا فشاوره المعز في اتخاذ بني عمه رياح جنداً، فأشار عليه بأن لا يفعل ذلك، وعرفه بقلة اجتماع القوم على الكلمة، وعدم انقيادهم إلى طاعة، فألح عليه في ذلك إلى أن قال له: إنَّما تريد انفرادك حسداً منك لقومك، فعزم مؤنس على الخروج إليهم بعدما قدم العذر وأشهد بعض رجال السلطان، ثم رجع متوجها نحوهم فنادى في القوم وحشدهم ووعدهم وغبطهم ووصف لهم كرامة السلطان والإحسان إليهم. ثم قدم في ركب منهم لم يعهدوا نعمةً ولا طالعوا حاضرةً، فلما انتهوا إلى قرية تنادوا: هذه القيروان! فنهبوها من حينها[1].

وبالرغم من هذه الخيانة التي أكدت صدق ما قاله مؤنس في بني عمه، لم يعدل المعز عن رأيه ولم يقتنع بشهادة مؤنس، بل ذهب إلى حد اتهامه باصطناع هذه الواقعة ليؤكد صحة قوله ونصيحته، وقال: إنَّما فعل مؤنس هذا ليصحح قوله ويظهر نصحه.

---

(١) البيان المغرب ١/ ٢٨٨-٢٨٩ .

ثم أمر بثقاف أولاده وعياله، وختم على داره حتى يعلم ما يكون من أمره فلما بلغ مؤنساً ما فعل بأهله وولده اشتدت نكايته وعظم بلاؤه وقال: قدمت النصيحة فحاق الأمر بي، ونسبت الخطيئة إلي، فكان أشد إضراراً من القوم[1].

وقد ظل المعز مدة يطمع في دخول هؤلاء الأعراب تحت طاعته، وبعث إليهم أعيان البلد وأكابر الفقهاء ليطمئنوهم على أحوال أسرة زعيمهم مؤنس، وأخذ عليهم المواثيق والعهود بالرجوع إلى الطاعة، لكنهم سرعان ما نكثوا وعادوا إلى ممارسة النهب والتخريب والدمار.

وحين أدرك المعز أن فريسته فيهم كانت مخطئة، وتأكد له عدم انقيادهم لأي سلطان أو قانون إلا لسلطان القوة والقهر، استعد لمواجهتهم وإجلائهم عن الأقطار التي بسطوا فيها نفوذهم.

وأول مواجهة بينهما كانت سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (٤٤٣هـ)، وقد قدرت جيوش المعز بثلاثين ألفا فيها الصنهاجيون والزناتيون والبربر والعبيد وبقايا عرب الفتح، وخرج المعز بنفسه في هذه المواجهة، وكان يظن أنها ستكون النهاية الأبدية لفتنة هؤلاء الأعراب، لكن الذي حدث - ولم يكن المعز يتوقعه- هو خذلان بعض جيوشه له، إذ بمجرد أن تراءا الجمعان انضموا إلى صفوف الهلاليين، وفرت جيوش زناتة وصنهاجة، وتركوه مع عبيده وبعض الصنهاجيين ليواجه هؤلاء الأعراب الذين أجمعوا أمرهم وعشائرهم لكسر شوكته.

---

(١) البيان المغرب ١/ ٢٨٩ .

وقد استبسل المعز وثبت في الميدان وثبت مع عبيده وقاتلوا الأعراب قتالا شديدا وسقط عدد كبير من العبيد، غير أن الدائرة في نهاية المطاف كانت عليه، ففر بمن معه إلى القيروان تاركا كل العتاد والمتاع للعدو، فكانت هزيمة نكراء.

ولما أحس المعز بعجزه عن مواجهة هؤلاء الأعراب، ركن إلى الصلح وأباح لهم دخول القيروان سنة تسع وأربعين وأربعمائة (٤٤٩هـ) ليشتروا ما يحتاجونه من الأمتعة والغذاء ظاناً أنهم سيدخلون لقضاء حوائجهم ويخرجون دون أن يعيثوا فساداً في المدينة.

لكن ظنه كان مخطئاً، إذ بمجرد دخولهم إلى القيروان سارعوا إلى النهب كعادتهم وخربوا كل شيء أتوا عليه، ودمروا المعالم الحضارية، وزرعوا رعبا شديدا في سكان القيروان، مما جعل العديد منهم يفر إلى المناطق الآمنة، وكان من الفارين عدد كبير من الفقهاء، منهم أبو الحسن اللخمي الذي اختار التوجه إلى مدينة سفاقس[١].

كما فر المعز بن باديس أيضاً لما رأى أن القيروان أصبحت خراباً يباباً، وتوجه إلى مدينة المهدية التي كان ابنه تميم واليا عليها، وبقي بها مدة حزيناً إلى أن توفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة ودفن برباط المنستير مدفن آبائه[٢].

---

(١) جاء في هامش كتاب العمر: كان اسم سفاقس يكتب قديماً بالسين، ثم حول في حدود القرن الثامن الهجري فصار يرسم بالصاد، وفي نظرنا أن رسمها بالسين أولى وأقرب للمنطق الجاري على الألسن. العمر ١/ ٢٩٢ .

(٢) انظر تفاصيل هذه الفتنة الأعرابية في المصادر الآتية: البيان المغرب ١/ ٢٧٧، المؤنس ص ١٠٦، الحلل السندسية ٢/ ٦٤، المغرب الكبير ٢/ ٦٦٨ .

- ولايـة تميم بن المعز :

بعد وفاة المعز بن باديس تولى الحكم ابنه تميم الذي كان واليا على المهدية منذ سنة خمس وأربعين وأربعمائة (٤٤٥هـ) .

وإذا كان المعز قد استطاع ضبط الأوضاع الداخلية للدولة قبل دخول الأعراب إلى إفريقية ، فإنَّ ابنه تميما قد اتسع عليه الخرق وكثر عليه الثوار ، وخرج عليه معظم الأقاليم الإفريقية حتى إنَّه لم يعد يسيطر إلا على المناطق الساحلية .

يقول حسن حسني عبد الوهاب واصفاً الظرف الذي تولى فيه تميم الحكم : وجملة ما بقي تحت سلطته يمتد على ساحل البحر من سوسة إلى قابس لا غير ، وأمَّا داخل القطر ، كتونس والقيروان والجريد فكان بيد أمراء صغار من الأعراب وغيرهم ، أعلنوا الاستقلال لضعف الدولة وظهور الهرم فيها ، وأصبحت المملكة التونسية أشبه شيء بالأندلس على عهد ملوك الطوائف لما استأثر كل زعيم بقلعة أو قلعتين[١] .

غير أنَّ تميم بن المعز - بالرغم من هذا الظرف الصعب الذي تقلد فيه أمر الحكم - تمكن من قمع الثوار واسترجاع كثير من الأقاليم التي كانت قد أعلنت انفصالها .

وهكذا استطاع في سنة خمس وخمسين وأربعمائة أن يسترجع سوسة التي كان أهلها قد أعلنوا التمرد ، فتحها عنوة ، وعفا عن سكانها .

ثُمَّ أرسل جيشاً عظيماً إلى تونس حين أظهر حاكمها ابن خراسان

---

(١) خلاصة تاريخ تونس ص١١٤ .

العصيان، وحاصرها مدة أربعة عشر شهراً اضطر أهلها تحت وطأة الحصار إلى قبول الصلح وفق الشروط التي أملاها عليهم تميم.

كما جهز جيشاً آخر وأرسله إلى القيروان التي كان عليها القائد بن ميمون الصنهاجي فأرجعها إلى حظيرة مملكته بعدما فر ابن ميمون إلى الناصر بن علناس حاكم القلعة [١].

وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة (٤٥٦ هـ) أي بعد أقل من سنتين من توليه السلطة، أعلن حمو بن مليل البرغواطي حاكم سفاقس تمرده أيضاً، وجمع حشداً من الأعراب كون بهم جيشاً كبيراً زحف به على المهدية، مقر تميم طامعاً في السيطرة على البلاد، لكن تميماً خرج إليه بعساكره قبل أن يصل إلى المهدية، فكسر شوكته وشتت جموعه، يقول ابن عذارى: وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة (٤٥٦ هـ) زحف إلى المهدية حمو بن مليل البرغواطي الثائر بمدينة سفاقس بمن استعان به من العرب، فورد خبره على تميم فسار إليه، ومعه طائفة كبيرة من زغبة ورياح، وكان مع حمو طائفة من عدي والأثبج فاقتتل الفريقان ثم ولت طائفة حمو أدبارها فأخذتها السيوف وتولتها الحتوف [٢].

وفي عهد تميم بن المعز دخل النصارى مدينة المهدية واستولوا عليها، فقد استغلوا غياب تميم الذي كان محاصراً بجيوشه مدينتي قابس وسفاقس، فانقضوا على المهدية وزويلة، وحين أخبر تميم بذلك عاد إلى المهدية فبذل للنصارى أموالاً طائلةً مقابل خروجهم منها [٣].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٢، المؤنس ص: ١٠٧ .

(٢) البيان المغرب ١/ ٢٩٩ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٢ .

ولن أدخل في تفاصيل ما حصل بين تميم والنصارى، وما قام به من حملات ضدهم لأن ذلك وقع بعد وفاة أبي الحسن اللخمي، فوفاته كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة (٤٧٨هـ) وهجوم النصارى على إفريقية بدأ سنة ثمانين وأربعمائة (٤٨٠هـ).

المطلب الثاني: مدينة سفاقس ووضعها السياسي في عهد أبي الحسن اللخمي:

أشرت سابقاً إلى أنَّ أبا الحسن غادر القيروان بعد هجوم أعراب بني هلال عليها سنة تسع وأربعين وأربعمائة (٤٤٩هـ) ونزل بمدينة سفاقس واستقر بها [١].

وهذه المدينة التي قضى بها أبو الحسن اللخمي بقية عمره تقع على شاطئ البحر الشرقي، وتحدها شمالاً ولايتا سوسة والقيروان، وجنوباً ولاية قابس، وغرباً ولاية قفصة، وشرقاً البحر [٢].

وصفها أحمد بن علوان الدرعي بقوله: وسفاقص حصن مسور في أرض قفراء جدبة يابسة بيضاء لا نبات فيها، وقبالتهم في البحر جزيرة قريبة فيها رياضهم وأشجارهم، وثمارهم ونخيلهم، يقطعون إليها بالصنادل في بحر قصير لا تجري به السفن الكبار، وذلك من الأسباب التي منع الله سفاقص وجربة من النصارى دمرهم الله [٣].

ووصفها التجاني في رحلته بقوله: دخلتها فرأيت مدينة حاضرة ذات

---

(١) أول من اختط سور سفاقص وجعلها مدينة، أحمد بن الأغلب من أمراء الأغالبة. انظر: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ٢/ ١٩٣.

(٢) تاريخ سفاقص ١/ ٢٠.

(٣) الحلل السندسية للسراج ١/ ٣١٣.

سورين يمشي الراكب بينهما، ويضرب البحر في الخارج منهما، وكان بها قبلُ غابة زيتون ملاصقة لسورها فأفسدتها العرب، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة، وفواكهها مجلوبة من قابس، وماؤها شراب لا يستساغ ... ويصطاد بها من الأسماك ما يفوت الإحصاء، وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية ... ومرساها مرسى حسنة ميتة الماء، والماء يمد بها ويجزر عنها كل يوم، فإذا جزر استوت السفن عن الحمأة، وإذا مد عامت[1].

وولاتها كانت تتردد عليها من قبل صنهاجة إلى أن ولى المعز بن باديس عليها منصور البرغواطي الذي كان معروفاً بشجاعته وإقدامه، وقد حاول بعد تحكمه في أوضاع المدينة أن يتمرد ويثور مستعيناً ببعض الأعراب الذين دخل معهم في حلف.

بيد أنَّ ابن عمه حمو بن مليل لم يترك له الفرصة للتمرد فقد باغته وقتله غدراً في الحمام، وكان ذلك سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، أي بعد استقرار أبي الحسن اللخمي في هذه المدينة بنحو سنتين.

وحين علم حلفاؤه من العرب بما جرى له بادروا إلى محاصرة حمو بسفاقص للانتقام منه. ويظهر أن حمو كان يفهم قصد هؤلاء العرب من حصاره، لذلك بعث إليهم يسألهم هل تريدون المال أو تريدون الأخذ بالثأر لابن عمه منه، فأجابوهم بأنهم لا يدخلون في شأن الدماء، وإنَّما غرضهم المال، فالتزم لهم بالقدر الذي طلبوه وعجل لهم بجزء منه ففكوا عنه الحصار، وصفا له الجو[2].

---

(١) رحلة التجاني ص: ٨٣.

(٢) نزهة الأنظار لمحمود مقديش ٢/ ١٩٣، والحلل السندسية ١/ ٣١٣.

وقد بقي حمو بن مليل حاكماً على سفاقص طيلة عهد المعز بن باديس، ولم يكن يظهر نيته في الانفصال، وبعد وفاة المعز وتولية ابن تميم السلطة، أبدى العصيان وأخذ يثور على المناطق المجاورة بعدما حالف جماعة من عرب عدي وأثبج.

وكان مصدر شغب طيلة عهد ولاية تميم، وصنع له متاعب كبيرة، وهو أحد الأسباب في هجوم النصارى على شمال إفريقية، وقد ظل مستبداً بسفاقص إلى سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة (٤٩٣هـ) حيث خرج إليه تميم بنفسه في حشد كبير من جيوشه، فأجلاه عنها وفر إلى قابس واستجار بمكي ابن كامل الرياحي[١].

وبذلك وضع تميم حداً لهذا الثائر الذي ظل زهاء اثنتين وأربعين سنة يقلقه ويقض مضجعه، وخلص مدينة سفاقص من قبضته.

ولعلَّ هذا الاضطراب السياسي الذي عرفته مدينة سفاقس ونواحيها في عهد أبي الحسن اللخمي هو السبب في عدم مرور كثير من الرحال إلى المشرق بها في هذه المرحلة، إذ يلاحظ أن الوافدين من الأندلس كانوا يمرون بالمهدية وينزلون بها لا يعرجون على سفاقس بالرغم من وقوعها على الساحل وقربها من المهدية.

* * *

---

(١) الحلل السندسية ١/ ٣١٤.

الفصل الثاني
الوضع الفكري

المبحث الأول
علاقة العلماء بالسلطة الحاكمة

المطلب الأول: صراع أهل السنة مع العبيديين وأتباعهم:

لقد دخل الفكر السني وعقيدة السلف إلى بلاد إفريقية مع الفاتحين الأول، ثم مع العلماء الأوائل الذين أدخلوا فقه الإمام مالك وعلم أهل المدينة إلى المغرب، وسرعان ما انتشر التوجه السني في ربوع البلاد وتجذر في نفوس العامة والخاصة، وصار مذهبا راسخا لدى الجميع لا يرضون به بديلا مهما كلفهم ذلك من ثمن.

وحين ابتليت البلاد باستيلاء العبيديين، واتخاذهم القيروان مركزا لخلافتهم، وقع صدام بين عامة الشعب المتشبع بالفكر السني وبين حكام العبيديين ودعاتهم الذين جندوا كل إمكاناتهم المادية والمعنوية لفرض مذهبهم على السكان.

وقد تفطن علماء السنة منذ الوهلة الأولى لخطورة الفكر العبيدي الوافد، وما انطوى عليه من مبادئ منافية لعقيدة الأمة، فصنفوه في خانة الابتداع والضلال وحذروا العامة منه.

وحين أفتى أبو إسحاق التونسي بخلاف ما أفتى به غيره من الفقهاء ثار

عليه العلماء والعامة وأنكروا عليه ذلك بشدة وكاد الأمر ينتهي إلى قتله لولا رجوعه عن فتواه وإعلانه التوبة مما صدر منه .

وذلك أنَّ أبا إسحاق أفتى بأنَّ العبيديين على ضربين : «أحدهما كافر مباح الدم ، والضرب الآخر هم الذين يقولون بتفضيل علي على سائر الصحابة ، لا يلزمهم - أي الكفر - ولا تبطل نكاحاتهم ، وشاعت فتواه فأنكرها جميع فقهاء إفريقية بالقيروان وغيرها ... وأرسلوا إلى أبي إسحاق أن يعاود النظر ، وأن يرجع ، فأبى إباءاً شديداً وخالف الجميع ، واستحقر شأن مخالفته ، وانتهت القصة إلى السلطان المعز فجمعهم ببعض الجمع عنده في المقصورة وناظروه ، فأظهر الإنابة إلى قولهم والرجوع إليهم»[1] .

لكنه لما خلا بأصحابه وأنكروا عليه رجوعه على ذلك عاد إلى فتواه وتمادى على رأيه « فأطلق الفقهاء الفتيا عليه بمقالته هذه بالتضليل والتبديع ، وقال فيها الشعراء قصائد كثيرة ...

ثم أمر السلطان بسجل سيئ في القصة من التبري من قوله ... وأمر بقراءته يوم الجمعة على المنبر ، ثم أمر بإحضاره إلى المقصورة في ذلك اليوم إثر الصلاة ، وأحضر معه الفقيه أبا القاسم اللبيدي بقية مشيخة الفقهاء وكبيرهم ، والفقيه أبا الحسن بن المقرئ ، والقاضي أبا بكر بن أبي محمد بن أبي زيد خاصة من بين سائر الفقهاء ، وكان هذان الفقيهان من أشد الناس ، وحكم في المسألة اللبيدي ، فحكم بأن يقر بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس ، وأن يقول : كنت ضالاً فيما رأيته ونطقت به ثم رجعت عن ذلك إلى مذهب

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ٦٠ .

الجماعة، فكانوا على ذلك، وكأنه استعظم الأمر على المنبر، وقال: ها أنا أقول هذا بينكم، فساعدوه وقنعوا منه بقول ذلك بحضرة السلطان والجماعة، وأن يقوله بمجلسه ويشيعه عن نفسه[1].

إنَّ حكم الأفارقة على العبيديين بالزندقة، كان أهم عائق أمام دعاتهم المكلفين بنشر مذهبهم وإشاعته في النَّاس، إذ لم يستطع هؤلاء الدعاة - بالرغم من مساندة السلطة لهم - أن يستميلوا إليهم سوى ثلة قليلة طوال حكم الفاطميين، وكان معظمهم من العوام.

ومن هذه القناعة الراسخة لدى الإفريقيين قاطبة إزاء العبيديين، انطلقوا في مواجهتهم، لذلك جاءت مقاومتهم للمد الفاطمي شاملة استعملت فيها كافة الوسائل والأساليب المناسبة، والإمكانات المتاحة، وإليك أهم مراحل هذه المقاومة وتجلياتها.

أ- الجدل والمناظرة:

لما انتشر دعاة العبيديين في ربوع البلاد يعرضون على الناس الفكر الشيعي العبيدي، ويغرونهم بالدخول في مذهب الفاطميين، تصدى لهم العلماء وناقشوهم فيما يدعون إليه شكلا ومضمونا، وناظروهم بقوة وصرامة، واستطاعوا بما عقدوه من مجالس المناظرة معهم، وبما ألفوه من كتب خاصة في الرد عليهم أن يفندوا مزاعمهم، ويهدموا بنيان دعوتهم القائم على أسس واهية مغشوشة.

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ٦١ .

إننا حين نستعرض مسيرات علماء السنة في هذه المرحلة، ونرصد فيها مختلف أشكال المواجهة العلمية مع الفكر العبيدي وحماته، نجد مواقف كثيرة تعبر كلها عن تمكن حاملي الفكر السني من أدوات الحجاج، وتفوقهم في أساليب المناظرة، وصرامتهم في دحض أدلة الآخرين.

ومن ذلك ما تحكيه كتب التراجم عن أبي محمد بن عبد الله الشهير بابن التبان (ت ٣٧١هـ)، جاء في «معالم الإيمان»: أن عبد الله المحتال عامل العبيديين على القيروان كان شديد الطلب للعلماء ليشرقهم - أي ليجعلهم على مذهب الشيعة، وكانوا يُسَمَّوْنَ حينئذ بالمشارقة - فدعا يوماً جماعةً من العلماء منهم: أبو محمد بن التبان، وأبو القاسم بن شبلون، وأبو محمد بن أبي زيد، وأبو الحسن القابسي، ليفرض عليهم مذهب الشيعة، فانتدب ابن التبان للحديث باسم هؤلاء العلماء بعد أن طلب منهم البقاء في منازلهم وعدم الاستجابة لدعوة المحتال، ولما دخل على المحتال قال له: لقد جئتك من قوم إيمانهم مثل الجبال أقلهم يقيناً أنا.

وكان في مجلسه دعاة للعبيديين، وفيهم أبو طالب، وأبو عبد الله: الداعيان المشهوران لدى الخاص والعام، وطلب منه أن يناظرهما في فضائل أهل البيت، فقبل ذلك دون أن يبدي أي تردد أو تخوف، ثم التفت إليهما قائلاً: ما تحفظان في هذا الموضوع؟ فأجاب أبو طالب: أنا أحفظ حديثان، ثم أجاب أبو عبد الله: وأنا أحفظ حديثان أيضاً. (هكذا بالرفع لحناً منهما). ثم قال ابن التبان للمحتال: وأنا أحفظ في ذلك تسعين حديثاً، فالأولى بهما الرجوع إليَّ.

هكذا انطلق الحوار بين ابن التبان وبين هؤلاء، ثم استرسل الطرفان في المناظرة فقال المحتال لابن التبان: يا أبا محمد، من أفضل، أبو بكر أو علي؟ فأجاب: ليس هذا موضعه، فقال المحتال: لا بد! فقال ابن التبان: أبو بكر أفضل من علي. فقال أبو عبد الله - أحد الداعيين المختارين لهذه المناظرة -: يكون أبو بكر أفضل من خمسة جبريل سادسهم؟ فقال ابن التبان: يكون علي أفضل من اثنين الله ثالثهما؟ أقول لك ما بين اللوحين وتقول لي أخبار الآحاد؟ فضاق المحتال ذرعاً بهذا الجواب المفحم، فقال لابن التبان: من أفضل عائشة أو فاطمة؟ فلم يبد رغبة في الإجابة، وآثر عدم الخوض في هذه المسألة الحساسة، لكن المحتال ألح عليه، وأرغمه على إظهار رأيه فيها، فلمَّا لم يجد بداً قال: عائشة وسائر أزواج النبي ﷺ أفضل من فاطمة، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فتصدى له بعض الدعاة الذين حضروا المجلس وقال له: أيما أفضل، امرأة أبوها رسول الله ﷺ وولداها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، أو امرأة أمها رومان، وأبوها عبد الله ابن أبي قحافة؟

قد ظن الداعية أنَّه بهذا الرد سيخرص لسان ابن التبان ويلزمه بالحجة، غير أن رد ابن التبان كان أقوى وألزم، وقد تضمن جوابه إثني عشر وجهاً، منها قوله للداعية أيما أفضل عندك، امرأة إذا طلقها زوجها أو مات عنها تزوجت عشرين زوجاً، أو امرأة إذا مات زوجها أو طلقها لم تحل لمسلم؟ فلم يستطع الداعية أن يجيب بشيء. ومنها أيضاً: أن عائشة رضي الله عنها مع

النبي ﷺ في درجته وفاطمة مع علي بن أبي طالب في درجته ودرجة علي لا تساوي درجة النبي ﷺ ...

فلمَّا تأكد المحتال من انتصار ابن التبان، وانهزام دعاته في هذه المناظرة التي كان ابن التبان يكره الخوض في موضوعها، التجأ إلى وسيلة أخرى كان يظن أنها ستمكنه من جلبه إلى صفه، وهي وسيلة التودد والمدح والدعوة المباشرة الخالية من الجدال والمناظرة، فقال له: يا أبا محمد، أنت شيخ المدنيين، ادخل العهد وخذ البيعة. فأجابه ابن التبان بما يقطع أمله فيه إلى الأبد وبيئسه من استمالة قلوب علماء السنة قاطبة إلى مذهبه فقال له: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه، ويرد على اثنتين وسبعين فرقة، يقال له هذا؟ لو نشرتني في اثنين ما فارقت مذهب مالك! فلم يعارضه، وأمر بعض أتباعه أن يخرجوه برفق[1].

وإذا كان ابن التبان لو نشر بمنشار ما تخلى عن عقيدة أهل السنة ومذهب مالك، وهو أقل إيماناً ويقيناً ممن ناب عنهم من العلماء - كما صرح بذلك لعامل القيروان - فكيف يطمع بعد في استدراج هؤلاء العلماء واستمالتهم إلى بيعة العبيديين، وقبول دعوتهم؟.

وجاء في ترجمة محمد بن فتح المعروف بابن شفون (ت ٣١٠هـ): نشأ بالقيروان واقتفى أثر سعيد بن الحداد في الكلام والمناظرة والذب عن مذهب

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ٩١-٩٣. وترتيب المدارك ٦/ ٢٥٣-٢٥٥.

السنة حين أظهر بنو عبيد الفاطميون التشيع في إفريقية، وحملوا النَّاس على القول به، وله مع القوم مواقف دافع عن آراء جمهور الإفريقيين »[1].

ومن المؤلفات التي كتبت خلال هذه المرحلة في الرد على العبيديين ومناقشة مذهبهم، ونقض مبادئه:

أ- كتاب الرد على الشيعة، لإبراهيم بن عبد الله القلانسي (ت ٣٥٩هـ)، وقد امتحن على هذا الكتاب، وعذب من قبل الحاكم الفاطمي أبي القاسم، حيث ضربه أربعمائة سوط وحبسه أربعة أشهر في سجن المهدية المعروف بدار الحرب.

ب- الإمامة والرد على الرافضة، لنفس المؤلف[2].

ج- كتاب أبي عبد الله بن سعدون (ت ٤٨٦هـ) قال عنه عياض: وله تأليف في ذم بني عبيد وأفعالهم القبيحة بالقيروان وغيرها»[3].

ب- تحصين الذات:

من أشكال المقاومة للمذهب الشيعي الفاطمي، عناية علماء السنة بترسيخ العقيدة السنية، ومذهب مالك في نفوس الناشئة، وتلقين مبادئهما لطلاب العلم والعامة في مجالس الدرس والوعظ، فقد استطاعوا بما بذلوه

---

(١) كتاب العمر ١/ ٣٧٧ .

(٢) كتاب العمر ١/ ٣٨٤ .

(٣) ترتيب المدارك ٨/ ١١٣ .

من جهود مضاعفة في هذا المجال أن يلقحوا عامة الشعب، ويكسبوه مناعة قوية ضد الفكر الشيعي الوافد.

وأبرز من كرس جهوده لخدمة هذا الهدف أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ) الذي سخر وقته وعلمه وقلمه وماله لنشر عقيدة أهل السنة، وإظهار المذهب المالكي، وترويض الناشئة على مبادئهما.

ويعد كتابه «الرسالة» من أهم أعماله العلمية التي تنعكس فيها إرادته القوية في تحصين الجيل الناشئ من الأهواء والبدع التي كان مذهب العبيديين مصدرها الأساس.

وقد عبر عن ذلك صراحةً في مقدمتها حين نص على أن الغرض من تأليفها يكمن في تعليم الولدان أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب، وما تعمله الجوارح، كالصلاة وجملا من أصول الفقه وفروعه على مذهب مالك بن أنس- رحمه الله- وعلى طريقته، كما يعلمون حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته[١].

وقد رزقت هذه الرسالة قبولاً حسناً لدى عامة الفقهاء والمؤدبين والمتعلمين في مختلف جهات العالم الإسلامي، وتنافسوا في اقتنائها وحفظها، قال الدباغ: فانتشرت الرسالة في سائر بلاد المسلمين حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد

---

(١) انظر: مقدمة الرسالة الفقهية ص ٧-٨ .

إفريقية والأندلس والمغرب وبلاد السودان، وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بالذهب، وأول نسخة نسخت منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري بعشرين دينار ذهباً»[1].

وقال أيضاً: ولما كان القصد بها أن تعلم لأولاد المسلمين، لم يبق بلد من بلاد الإسلام إلا بلغت إليه[2]. وهذا برهان إخلاص مؤلفها - رحمه الله -.

ومن أجل تحصين الذات أيضاً، اهتم ابن أبي زيد بطلاب العلم، وبشيوخ الفقه، وكانت له عناية فائقة بهم، يتفقد أحوالهم ويواسي المحتاج منهم بماله الخاص.

فقد وصل يحيى بن عبد الله المغربي حين قدم القيروان بمائة وخمسين درهما، وبعث إلى القاضي عبد الوهاب بألف دينار عيناً، فلما بلغته قال: هذا رجل وجبت علي مكافأته فشرح رسالته.

وجهز ابنة الشيخ أبي الحسن القابسي بأربعمائة دينار عينا لئلا ينشغل قلب أبيها بها ويتثاقل عن أداء رسالته العلمية، وبعث إلى الفقيه أبي القاسم بن شلبون - حين مرض - بخمسين ديناراً ذهباً.

ولم يكن الشيخ ابن أبي زيد يعنى بالطلاب ماديا فحسب بل كان يحرص على تحصينهم بمساعدتهم على الزواج يتفهم مشاكلهم ومطالبهم الجنسية ويسعى إلى تلبيتها لهم.

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١١١ .

(٢) معالم الإيمان ٣/ ١١٢ .

فقد ذكر الفقيه أبو بكر الصقلي ابن أبي زيد يوماً في مجلس فتاويه، وذكر بعض فضائله فبكى، وقال لجلسائه: كان أعطاني أيام طلبي عليه بالقيروان جارية، وأن ولدي هذا منها وأشار إلى ولده (١).

وروى سليمان بن محمد المقري عن ثقاة شيوخه أن بعض طلبة الأندلس وصل إلى الفقيه أبي محمد للقراءة عليه فأكرمه وأنزله وأجرى عليه ما يحتاج إليه من نفقة، وجعله إمام مسجده (٢).

وقد خرج هذا الإمام يوماً من داره ليصلي بالنَّاس فأبصر امرأة خارجة من الحمام، وقد كشفت عن وجهها لما نالها من حر الحمام، ولم تظن أن أحداً ينظر إليها، فلمَّا رأته سترت وجهها وانصرفت، لكن الإمام تعلق بها وأخذت من نفسه مأخذاً عظيماً، فتبعها إلى أنَّ دخلت دار الفقيه ابن أبي زيد، ولما رفع رأسه شاهد الفقيه ينظر إليه ويراقب تصرفه، فعاد إلى منزله كئيباً، وتأخر عن الصَّلاة.

ثم لم يلبث ابن أبي زيد أن التحق به في منزله وقال له: يا بني، إنَّما جئت معتذراً من تقصيري في حقك، إذ لم أقم بجميع ما تحتاج إليه، وذلك أني لم أتفقد أنك تحتاج إلى النساء فإنَّك شاب، وها أنا شيخ أحتاج إلى الزيادة من ذلك، فكيف أنت؟ وأما الصبية التي رأيتها خارجة من الحمام فإني ربيتها صغيرة لنفسي وهي لك، فزوجه إياها (٣).

---

(١) نفس المصدر ٣/ ١١٣ .

(٢) نفس المصدر ٣/ ١١٣-١١٤ .

(٣) معالم الإيمان ٣/ ١١٤ .

إنَّ هذا الحرص الشديد والعناية الفائقة من الشيخ أبي محمد بن أبي زيد بشيوخ العلم والطلبة والولدان من أجل نصرة الفكر السني، والمذهب المالكي، وقطع الطريق أمام أهل الأهواء والبدع من الروافض وغيرهم، قد أعلى من شأنه لدى الخاص والعام، وزاد حبه وثقته رسوخاً في النفوس والقلوب.

وإذا كان العبيديون قد ضربوا حصاراً على العلماء وضايقوهم ومنعوا النَّاس من الاتصال بهم، فإنَّ ذلك لم يثن عزم هؤلاء، ولم يصرفهم عن أداء رسالتهم.

فقد كانوا يتخذون كل الوسائل والحيل الممكنة للاتصال بالناس وبخاصة طلاب العلم، حتى إنَّه ذكر عن محمد بن الفتح المؤدب أنه «كان يخرج إلى مقبرة باب سلم فيستتر بحائط يقرأ على أصحابه هناك للخوف من بني عبيد، لأنهم منعوا من بث العلم، وسجنوا العلماء في دورهم»[1].

ج- محاربة كل ما له صلة بالفاطميين، والتضييق على من يركن إليهم:

من أساليب المقاومة التي انتهجها الإفريقيون للحد من المد الشيعي العبيدي وكسر سلطانه، قطع العلاقة مع الفاطميين، ومحاربة كل المظاهر والآثار التي ترمز إلى وجودهم وحصار الموالين لهم وإخراجهم من البلاد، ومن تجليات هذه المقاطعة:

---

(١) نفسه ٣/ ٣٩.

- **منع إعطاء الزكاة لهم وأخذها منهم:**

وقد أفتى الفقهاء بمنع إعطاء الزكاة لهم، لأنهم لا يقرون بالزكاة، وإنَّما يعتبرونها جزية، وأفتوا بعدم أخذها منهم، لأن أموالهم مغصوبة من الشعب وليست ملكاً لهم.

جاء في ترتيب المدارك: وكتب محرز بن خلف (ت ٤١٣ هـ) العابد إلى أبي بكر الأبهري يسأله عما يأخذ بنو عبيد من الزكاة، فأجاب أنها لا تجزئ. وكذلك قال الجبنياني، والقابسي، لأنهم لا يقرون بالزكاة المفروضة، وإنَّما يأخذونها على أنها جزية، وهم على غير الإسلام [١].

وسأل رجل أبا الفضل عباس بن عيسى الممسي [٢] (ت ٣٣٣هـ) عن رجل من طائفة السلطان أراد أن يودع عنده مائة دينار، فقال له: إذا أودعك إياها ثم أخذها منك لزمك أن تتصدق بمائة دينار من مالك. فقال له: ولم ذلك؟ فقال: لأن هذا الرجل غاصب، وماله ينبغي أن يرده إلى من غصبه منه فإن لم يعرفه تصدق به [٣].

- **مقاطعة صلاة الجمعة:**

كان خطباء الجمعة في عهد الفاطميين والمرحلة الأولى من حكم الصنهاجيين يذكرون أسماء بني عبيد على المنابر ويدعون لخلفائهم، وكان ذلك يضيق على الإفريقيين، لأنهم يعتبرون بني عبيد من الزنادقة المرتدين، فانقطعوا عن حضور الجمعة.

---

(١) ترتيب المدارك ٧/ ١٦٦ .

(٢) نسبة لقرية مُمْسَة بالمغرب، انظر ترجمته في ترتيب المدارك (٥/ ٢٩٧-٣١٠).

(٣) معالم الإيمان ٣/ ٢٨ .

يقول ابن عذارى: لما رحل بنو عبيد إلى مصر لم يزل ملوك صنهاجة يخطبون لهم بإفريقية، ويذكرون أسماءهم على المنابر، وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فراراً من دعوتهم، وتبديعاً لإقامتها بأسمائهم، فكان بعضهم إذا بلغ المسجد قال سراً: «اللهم اشهد اللهم اشهد» ثم ينصرف فيصلي ظهراً أربعاً، إلى أن تناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد، فتعطلت الجمعة دهراً، وأقام ذلك مدة إلى أن رأى المعز بن باديس قطع دعوتهم، فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم»[1].

- منع الصلاة في لباس يحمل اسماً من أسماء بني عبيد:

من تجليات هذه المقاومة، إفتاء بعض العلماء بمنع الصلاة في أي ثوب يحمل أسماء بني عبيد، فقد سئل أبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو عمران الفاسي في زمن المعز بن باديس عن الطرز التي فيها أسماء بني عبيد مثل الظاهر والحاكم وغيرهما مما يلبس، أيصلى فيهما؟ فكتب الشيخ أبو بكر: هذا سؤال أحمق أخرق قليل المعرفة.

وأجاب أبو عمران: إنَّما يجب على من بسط الله يده أن يمنع من ذلك[2].

- قطع السلام عليهم:

كان بعض الزهاد لا يسلم على العبيديين وأشياعهم إمعاناً في قطيعتهم

---

(١) البيان المغرب ١/ ٢٧٧ .

(٢) معالم الإيمان ٣/ ١٦٧ .

وإقصائهم، من هؤلاء أبو محمد عبد الله بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجام، جاء في معالم الإيمان في ترجمته: كان عالماً صالحاً ورعاً ذا سمت وخشية ... مجانباً لأهل الأهواء والبدع لا يرد السلام عليهم[1].

- **إخراجهم من المجالس:**

كان بعض العلماء والعباد يمنعون العبيديين ومن والاهم من الدخول عليهم وحضور مجالسهم.

كان أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السبائي من الزهاد المشهورين في القيروان، وكان الناس يترددون عليه كثيرا يلتمسون دعاءه وبركته، ووقع أن «دخل عليه رجل في جملة الناس من المشارقة (أي من الشيعة)، فلما دغل وسلم رفع الشيخ رأسه وقد احمر وجهه وقام شعره وقال: الشيطان في داري ثلاث مرات ففر المشرقي»[2].

- **التضييق على مَنْ يواليهم، أو يدخل في دعوتهم:**

لقد سبقت الإشارة إلى أنَّ علماء إفريقية أجمعوا على تبديع بني عبيد ونسبتهم إلى الضلال، ولذلك كانوا ينكرون موالاتهم والانضمام إلى مذهبهم، وقد ذهب بعضهم إلى أنَّ المرء لو خُيِّر بين القتل وبين الدخول في مذهب العبيديين وجب عليه أن يختار القتل.

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ٥٧.

(٢) نفسه ٣/ ٦٥.

جاء في ترتيب المدارك: سئل أبو محمد البكراني عمن أكرهه بنو عبيد على الدخول في دعوتهم أو يقتل؟ قال: يختار القتل، ولا يعذر أحد بهذا إلا من كان أول دخولهم البلد قبل أن يعرف أمرهم، وأمَّا بعد فقد وجب الفرار، ولا يعذر أحد بالخوف بعد إقامته، لأنَّ المقام في موضع يطلب من أهله تعطيل الشرائع لا يجوز، وإنَّما أقام فيها من العلماء والمتعبدين على المباينة لهم كي لا يخلو بالمسلمين عدوهم فيفتنوهم عن دينهم.

وعلى هذا كان جبلة بن حمود ونظراؤه: ربيع القطان، وأبو الفضل الممسي، ومروان بن نصرون، والسبائي، والجبنياني يقولون ويفتون[1].

ومن هنا كان من يظهر منه ميل إلى العبيديين من الإفريقيين - أياً كان- يشدد عليه الخناق، ويطارد من قبل الجميع.

لقد كان أبو القاسم البراذعي من أخص تلاميذ أبي محمد بن أبي زيد، وكانت له شهرة واسعة في الوسط العلمي بما قدمه من خدمات جليلة للمذهب المالكي، لكنه لما أظهر الميل إلى بني عبيد، طرد من البلاد، ولم يشفع له مقامه العلمي، ولا خدمته للمذهب المالكي.

قال عياض في ترجمة أبي القاسم المذكور: «ولم تحصل له رئاسة بالقيروان وكان مبغضا عند أصحابه، لصحبته أسباب سلطانها الذين تبرأوا هم منهم، فكان مرفوض القول لديهم، ثقيل المكان عليهم. ويقال، إنَّ فقهاء القيروان أفتوا برفض كتبه وترك قراءتها لتهمته لديهم، وسهل بعضهم في «اختصاره للمدونة» وحده لشهرة مسائله.

---

(١) ترتيب المدارك ٧/ ٢٧٦-٢٧٧ .

ويقال، إنَّ الذي مكن تغييرهم عليه أنه وجد بخطه في ذكر بعض بني عبيد وأنسابهم، يتمثل في تقريضهم بهذا البيت المشهور:

أولئك قوم إنْ بنوا أحسنوا البنا
وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

ويقال: بل سببه أنه ألف كتاباً في تصحيح نسب بني عبيد، وأنَّه كانت تأتيه صلة إمامهم ...

فلفضته القيروان فلم يستقر بها، فخرج إلى صقلية، وقصد أميرها فحصلت له عنده مكانة »[1].

- رفض تولية القضاء لهم:

رغم ما يتيحه منصب القضاء من فرص الالتقاء بالناس، وتخفيف المعاناة عنهم، فإنَّ علماء إفريقية كانوا يرفضون توليته في ظل الحكم الفاطمي، لأنهم لم يكونوا يعترفون لهم بالشرعية في الحكم.

وقد حاول العبيديون بالرغبة والرهبة أن يسندوا القضاء إلى بعض مشاهير العلماء لتطبيع علاقتهم بالعامة. لكنهم لم يفلحوا في ذلك، ولم يستطيعوا أن يظفروا إلا بأفراد قلائل قبلوا عرضهم بشروط تضمن لهم الاستقلالية في القرار، وتحمي أحكامهم وأقضيتهم من عدم التنفيذ.

---

(١) ترتيب المدارك، ٧/ ٢٥٧-٢٥٨.

ومن عرض عليه القضاء فرفض:

- أبو بكر بن اللباد، جاء في معالم الإيمان: ورفع لعبيد الله إلى المهدية ليوليه قضاء صقلية فاعتذر، وقال: صرت في حد لو كنت على القضاء لوجب التأخر إلي، فكيف ابتدائي وقد كبر سني، ودخلتني زمانة؟ فأعفاه.

قال ابن ناجي: وهذا أيضاً من لطائف شمائله، وإلا فالشيخ الكبير هو أولى بالقضاء ممن هو دونه[1].

وقد اختار الحاكم العبيدي أبا بكر بن اللباد ليوليه القضاء لأنه كان: «جليل القدر عالماً صالحاً ضربت إليه أكباد الإبل، لأنه كان إماماً في الدين وعالماً في مذهب مالك مع صحبة الصالحين»[2].

- أبو العباس عبد الله بن أحمد الإبياني: «وكان الأمير إسماعيل المنصور ابن القائم ثالث الفاطميين، أشخص أبا العباس إلي القيروان، وعرض عليه قضاء إفريقية فامتنع منه، وبعد إلحاح كبير أعفاه»[3].

وقد وقع اختيار العبيديين على أبي العباس الإبياني لقضاء إفريقية، لأنَّه كان شيخ الفتوى في عهده، قال عنه تلميذه أبو الحسن القابسي: ما رأيت بالمشرق ولا بالمغرب مثل أبي العباس، كان يفصل المسائل كما يفصل الجزار الحاذق اللحم»[4].

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ٢٣.

(٢) نفسه ٣/ ٢٢.

(٣) كتاب العمر ٢/ ٦٣٨.

(٤) نفسه ٢/ ٦٣٧.

ومن قبل القضاء للعبيديين بشروط، أبو عبد الله محمد بن أبي المنصور، فحين أجبره إسماعيل بن أبي القاسم العبيدي على القضاء «اشترط عليه أن لا يأخذ لهم صلة، ولا يركب لهم دابة، ولا يقبل شهادة من طاف بهم أو قاربهم، ولا يركب إليهم مهنئاً ولا معزياً. فأجابه إسماعيل إلى هذا وقبل شرطه وقال له: إذا لم تأخذ صلة فبم تعيش؟ قال: بما أعيش به الآن! قال: فما تركب وأنت شيخ كبير؟ قال: الجامع قريب من داري أستطيع المسير إليه، فسار بالعدل في جميع أقضيته، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم[1].

لكن يظهر أنَّ العبيديين لم يكونوا يلتزمون بتلك الشروط، ويوفون بها للقضاة، وإنَّما كانوا يتظاهرون بالموافقة عليها في البداية ليوقعوا الذي يقبل القضاء في حبائلهم، ويمرروا من خلاله سياستهم وأوامرهم. والدليل على ذلك أنَّ بعض القضاة لما امتنعوا من امتثال أوامرهم نكلوا بهم وأذاقوهم العذاب الشديد.

جاء في معالم الإيمان في ترجمة أبي عبد الله محمد بن إسحاق الجبلي: «ولي قضاء برقة لإسماعيل (إسماعيل بن أبي القاسم المذكور)، وكان ابن الكافي عاملاً عليها، فأتى إليه ابن الكافي فقال له: إنَّ غداً العيد، فقال القاضي: إنْ رئي الهلال الليلة كان ما قلت، وإلا فلا يمكنني أن آمر الناس بالفطر في يوم رمضان، وأتقلد ذنوبهم، فقال له: بهذا وصل إلي كتاب مولاي - يعني إسماعيل -، فالتمس الناس الهلال فلم يروه، فأصبح العامل إلى القاضي بالطبول والبنود وهيئة العيد، فقال القاضي: والله لا أخرج ولا

---

(١) نفسه ٢/ ٦٣٨ .

أصلي، ولا أفطر، في يوم من أيام رمضان ولو علقت بيدي! فمضى العامل فجعل من خطب وصلى، وكتب بما جرى إلى مولاه. فلما وصل إليه الخبر أمر بدفع القاضي، فلما وصل إلى القيروان قال له: إمَّا أن تتصل بنا ونعفو عنك، أو نفعل بك ما قلت، فامتنع من الدخول في دعوته، وقال: افعل ما شئت. فنصب له صارياً عند الباب الأخير من أبواب الجامع ... وعلق يديه إليه في الشمس، فأقام كذلك ضاحياً في شدة الحر يومه وليلته، فلما كان بالغد مات ولسانه خارج من العطش، وهو يطلب من يسقيه الماء فلم يسق خوفاً من عامل البلد، فلما مات أخذوه وصلبوه بباب أبي الربيع، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة رحمه الله[١].

ولما ضاق العلماء ذرعاً بهذه المعاملات الوحشية التي كانت تستهدف المشاهير منهم بالدرجة الأولى، لم يجدوا بداً من إعلان الثورة المسلحة على بني عبيد، وتحريض العامة على قتالهم.

وقد ازدادت الثورات اشتعالاً بعد أن أعلن الخليفة الفاطمي: الحاكم بأمر الله عن مذهبه، وأظهر ما كان يخفيه أسلافه، وقد قاده حمقه وغروره إلى ادعاء معرفة الغيب، وكان يوهم النَّاس بأنَّه يطلع على أسرارهم من خلال إخبارهم ببعض شؤونهم الخاصة التي كانت جواسيسه تطلعه عليها.

وسأقتصر في هذا السياق على ذكر ثورتين شارك فيهما العلماء والعباد إلى جانب العامة، إحداهما وقعت قبل انتقال مركز الخلافة الفاطمية من

(١) معالم الإيمان ٣/ ٤٩ .

القيروان إلى القاهرة، والثانية وقعت بعد انتقالها وبعد إسناد العبيديين إفريقية إلى الأمراء الصنهاجيين ليديروا شؤونها نيابة عنهم.

الثورة الأولى: وهي التي أشعل فتيلها أبو يزيد الخارجي في عهد عبيد الله المهدي الفاطمي.

وقد كان أبو يزيد خارجي المذهب، وكان يطوف في الأرياف يدعو إلى مذهبه، حتى كون أتباعاً كثيرين، فأعلن الثورة ضد العبيديين، وانضم إليه الفقهاء والزهاد والعامة.

وقد ذكر الشيخ النيفر أن أبا يزيد هذا لم يكن يظهر مذهبه، لذلك تبعه الناس، وانضم إليه العلماء والعباد، قال: ومما أعان على اشتعال هذه الثورة وانتشارها، والتهابها التهابا كادت الدولة تعجز عنه، أن أبا يزيد: مخلد بن كيداد، عرف كيف يستغل الموقف، فهو وإن كان من النكارين لكنه كان لا يظهر مذهبه، ويزعم أنه يدعو إلى الحق، فرجا الناس منه الخير والقيام بالسنة، حتى رأوه رجل الخلاص، فلذلك خرج معه الفقهاء والعباد... [1].

غير أن ما نجده في تراجم بعض العلماء الذين خرجوا مع أبي يزيد، يدل على أن الناس كانوا يعرفون مذهبه، ويعرفون أنه من الخوارج، ولم يخرجوا لكونهم رأوا فيه رجل الخلاص، أو لما يرجى فيه من القيام بالسنة، وإنَّما شاركوا معه لاعتقادهم أن خطر العبيديين أكبر من خطر الخوارج في هذه المرحلة، والمصلحة العامة للأمة كانت تقتضي مساندته.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ١/ ٩ .

يقول ابن ناجي في ترجمة أبي الفضل عباس بن عيسى الممسي: قال أبو بكر المالكي: رأى - يعني أبا الفضل الممسي- أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي، وقطع دولة بني عبيد فرض، لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم الإسلام ويرثون ويورثون، وبنو عبيد ليسوا كذلك، زال عنهم اسم المسلمين، فلا يتوارثون معهم، ولا ينتسبون إليهم[١].

وقال أبو بكر المالكي في ترجمة ربيع بن سليمان القطان: عوتب ربيع في خروجه مع أبي يزيد إلى حرب بني عبيد فقال: وكيف لا أفعل وقد سمعت الكفر بأذني؟ فمن ذلك أني حضرت إشهاداً كان فيه جمع كثير: أهل السنة والمشارقة، وكان بالقرب مني أبو قضاعة الداعي، فأتى رجل مشرقي من أهل الشرق - أي من الشيعة -، ومن أعظم المشارقة فقام إليه رجل مشرقي وقال: إلى ها هنا يا سيدي ارتفع إلى جانب رسول الله ﷺ - يعني أبا قضاعة الداعي ويشير بيده إليه - فما أنكر أحد شيئاً من ذلك! فكيف يسعني أن أترك القيام عليهم[٢].

فهذه التصريحات تدلُّ على أنَّ الناس كانوا على علم بمذهب أبي يزيد، وأن بعضهم امتنع عن الخروج معه لكونه من الخوارج، وعاتب المشاركين معه، كما تدلُّ على أنَّ المنضمين إليه من الفقهاء والزهاد لم يكن هدفهم مناصرته، بقدر ما كان القصد استغلال مبادرته واتخاذها فرصة لإعلان الجهاد ضد العبيديين.

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ٢٩ .

(٢) رياض النفوس ٢/ ٣٣٨ .

وتدلُّ الأعداد الهائلة من الفقهاء والعباد والعامة المشاركين في هذه الثورة إلى جانب أبي يزيد وأتباعه، على أنَّ سكان إفريقية قد ضاقوا درعاً بهؤلاء العبيديين، وأنهم كانوا ينتظرون مبادرة من أي كان للانقضاض عليهم وكسر شوكتهم.

ويحدثنا ابن ناجي عن الجو الحماسي الذي سبق الثورة، وعن الاستعدادات التي اتخذها الناس قبل النزول إلى ساحة المعركة، والانضمام إلى جيش أبي يزيد فيقول: ولما اجتمعوا للخروج عليهم، قال ربيع القطان: أنا أول من يشرع في هذا الأمر، ويخرج فيه، ويندب المسلمين ويحضهم عليه، وتسارع جميع الفقهاء والعباد لذلك.

فلمَّا كان بالغد خرج ربيع وجماعة الفقهاء ووجوه التجار إلى المصلى بالسلاح الشاك، والعدة العجيبة التي لم ير مثلها وضاق بهم الفضاء، وتواعد الناس أن ينظروا في الزاد وآلة السفر إلى يوم السبت، وركب بعض الشيوخ من الموضع إلى الجامع بالسلاح، وشقوا السماط بالقيروان وزادوا في استنهاض النَّاس.

فلمَّا كان يوم الجمعة اجتمعوا في الجامع وركبوا بالسلاح الكامل، وعملوا البنود والطبول، وأتوا بالبنود فركزوها قبالة المسجد المعروف بالحدادين ... فلمَّا اجتمع النَّاس، وحضرت صلاة الجمعة طلع الإمام على المنبر، وخطب خطبة أبلغ فيها، وحرض النَّاس على الجهاد، وأعلمهم بمالهم

فيه من الثواب ... فلمَّا أنهى الصلاة قال للحاضرين: إنَّ الخروج غداً يوم السبت إنْ شاء الله[1].

وقد برهن الفقهاء والصلحاء عن شجاعة نادرة في هذه المواجهة مع العبيديين، وثبتوا في الميدان، وتمكنوا من إلحاق هزيمة نكراء بالفاطميين وأشياعهم، وكادوا يقضون عليهم إلى الأبد لولا خيانة أبي يزيد الذي انسحب بجيشه في آخر لحظة.

قال ابن ناجي: وكان القرويون غلبوا من كان بالمهدية وطمعوا في أخذها فمكر بهم أبو يزيد الخارجي فقال لجيشه: القرويون إذا حكموا على بني عمنا واستأصلوهم يرجعون علينا فلا نقدر عليهم، فإذا كان من الغد والتحم الناس في القتال انعزلوا عنهم حتى تقع الكرة عليهم فنرتاح من شوكتهم ... ففعلوا ذلك، فوقعت الهزيمة عليهم لما سبق من سابق علم الله تعالى باستشهاد من استشهد منهم كأبي الفضل الميسي وربيع القطان ...[2].

وكلام ابن ناجي واضح في أن خيانة أبي يزيد في آخر لحظة هي سبب الهزيمة.

وذكر الشيخ النيفر أنَّ أبا يزيد لم ينسحب، وإنَّما ظل مقاوماً وكاد يقضي على بني عبيد، لولا الدعم الذي أتاهم من قبل زيري بن مناد الصنهاجي، يقول: ومن هذين العاملين (إعلان الفواطم عن مذهبهم، وشدة تمسك الإفريقيين بالسنة). كان اشتداد أمر أبي يزيد، حتى كادت ثورته تقضي على

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ٣٢-٣٣.

(٢) نفسه ٣/ ٣٤.

ملك المهدية، لولا إعانة جاءت من بعيد، وهي اليد التي قدمها زيري بن مناد الصنهاجي إلى القائم، فإنَّه حمل الميرة إليه وهو محصور بالمهدية من قبل أبي يزيد[1]. ولست أدري من أين أخذ هذا.

الثورة الثانية: وهي التي وقعت في زمن المعز بن باديس الصنهاجي سنة سبع وأربعمائة (٤٠٧هـ) بعد انتقال مقر الخلافة الفاطمية إلى مصر.

وقد شارك في هذه الثورة أيضاً كسابقتها عدد كبير من الفقهاء والعباد والعامة، وتتميز عنها بمساندة السلطة الحاكمة لها، إذ كان الأمير الصنهاجي المعز بن باديس يحرض على قتال أتباع العبيديين، ويحث مناصريه في مجالسه الخاصة على تطهير إفريقية منهم[2].

المطلب الثاني: علاقة العلماء بالأمراء الصنهاجيين:

لقد ظل الأمراء الصنهاجيون ردحاً من الزمن تابعين للخلافة الفاطمية، سائرين في ركابها، غير أن الشعب الإفريقي لم يكن راضياً على هذه الموالاة، وكانت تظهر بين الفينة والأخرى مواقف جريئة للفقهاء من سياسة الصنهاجيين تترجم امتعاضهم من هذه التبعية.

ورغم أنَّ بعض الأمراء الصنهاجيين كانوا يظهرون إرادتهم في الانفصال عن العبيديين، فإنَّ ذلك لم يكن كافيا في نظر العلماء، ما لم تتحول هذه الإرادة إلى واقع عملي وإجراءات ملموسة.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ١/ ٩-١٠ .

(٢) سبق الحديث مفصلاً عن هذه الثورة .

وظلوا يضغطون ويقاومون حتى قطعت الدولة الصنهاجية جميع حبائلها مع الفاطميين، وانفصلت عنهم، وطهرت البلاد من أتباعهم، وقد كان الأمراء الصنهاجيون يظنون أن مجرد قطع علاقتهم بالدولة الأم يكسبهم ثقةً مطلقةً لدى الشعب، وأن كل ما يصدر عنهم من تجاوزات بعد ذلك سيهون، فلم يأخذوا الأمور بالحزم اللازم، وتركوا الظلم ينتشر في البلاد، لكن الفقهاء كانوا لهم بالمرصاد، فوقفوا في وجه الطغيان والفساد، مسخرين عامة الشعب الذي كان طوع أيديهم للحفاظ على المكتسبات، وحماية الحرمات والمقدسات.

وحين أدرك الصنهاجيون أن سلطة الفقهاء لا تقهر توددوا إليهم ونزلوا في كثير من الأحيان عند رغبتهم.

وقد سلكوا مختلف الوسائل من أجل كسب العلماء وضمهم إلى صفهم، لكن العلماء ظلوا مع الحق، يساندون السلطة حينما تصيب، وينكرون عليها ويعاتبونها ويقاومونها عندما تخطئ وتتنكب عن المحجة، ولم يستهوهم العطف والتودد والهدايا.

جاء في معالم الإيمان في ترجمة أبي بكر عتيق السوسي: « وهو الذي صلى على أبي عمران الفاسي، فأعلم المعز بمكانه من الدين والعلم، وأخبر بفقره، وأنَّه لا مسكن له، فبعث إليه بمال يشتري به داراً، فقال أبو بكر للرسول: ما كان أغناني عن الصلاة عن أبي عمران التي عرفت بيني وبينك! وقال: ردها عليه وقل له يدفعها لأربابها، فإن لم يعلم أربابها تصدق بها على الفقراء. فأعلم الرسول المعز بما قال فبعث إليه كتباً جليلة مثل المدونة والنوادر والموازية وغيرها مما له قيمة كبيرة على رؤوس الحمالين.

فلمَّا وصل إليه الرسول أغلق الباب في وجهه فلم يزل يلاطفه، وقال له: يقول لك المعز: هذه الكتب في خزانتنا ضائعة، وبقاؤها عندنا مما يزيدها ضياعاً، وأنت أولى باقتنائها، فقال له: اكتب على كل جزء منها: حبس على طلبة العلم، فكتب ذلك، فلما بلغ المعز ذلك قال: أردنا أمراً فغلبنا فيه[1].

فالمعز بن باديس الصنهاجي لما علم مكانة عتيق السوسي حاول كسب وده، واستغل حال فقره، فقرر منحه بعض المال من أجل أن تبقى له منة عليه يستعملها عند الحاجة لتليين مواقفه، لكن عتيقاً عامله بنقيض قصده ورد عليه هديته، واستغل المناسبة لينبهه إلى ظلمه وجوره.

وورد في ترتيب المدارك في ترجمة محرز بن خلف العابد، أن بعض الطلبة فرض عليه أداء بعض المال ظلما فشكى إليه مظلمته وطلب منه أن يكتب بذلك إلى باديس بن منصور الصنهاجي أمير الوقت، فكتب رسالة طويلة إليه، ومما جاء فيها:

وقد كتبت إليك في مسألة رجل من الطلبة طولب بالدراهم ظلماً ولا شيء قبله، وحامل رقعتي يشرح لك ما جرى، فعامل فيه من لابد من لقائه، واستحي ممن هو وحده، وشاور في أمرك الذين يخافون الله تعالى، واحذر بطانة السوء، فإنَّهم إنَّما يريدون دراهمك، ويقربون من النار لحمك ودمك، فاحفظ تحفظ، واتق الله ...[2].

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٨١ .

(٢) ترتيب المدارك ٧/ ٢٦٨ .

إنَّ محرز بن خلف العالم العابد الزاهد الورع، خاتمة صلحاء علماء إفريقية وزهادها -كما وصفه بذلك عياض-، رفض بشدة أن يمس أحد طلاب العلم ظلم من قبل أعوان السلطان، ودافع عنه بقوة.

وقد استغل الفرصة ليلفت نظر السلطان إلى خطورة الظلم، وحذره بأسلوب لطيف من عواقبه، وأنكر عليه ضمنيا اتخاذه بطانة السوء وركونه إلى الظلمة.

ويظهر أن السلطان قد أدرك هذه الإشارات، لذلك لم يلبث أن أمر بكتابة سجل لجميع الطلبة بالحفظ والرعاية، وأن يصرف على جميع طلبة الشيخ محرز ما تسبب إليهم من المظالم[1].

وجاء في معالم الإيمان أيضاً أن المعز بن باديس بعث ابن عطاء اليهودي طبيبه وخاصته إلى أبي عمران الفاسي يستفتيه في مسألة، فلما دخل على الشيخ في داره ظنه الشيخ بعض رجال الدولة إلى أن قال بعض الحاضرين: أكرمك الله إنَّه من خيار أهل ملته، فقال الشيخ: وما ملته؟ فقال: هذا ابن عطاء الله اليهودي، فغضب أبو عمران وقال لابن عطاء: أما علمت أن داري كمسجدي، فكيف اجترأت على دخولها؟ وأمره بالخروج وهو يرتعد ... وقال له: انصرف إلى مرسلك فقل له يبعث إلي برجل من المسلمين يأخذ جواب مسألته، فإني لأستحيي أن أحملك أسماء الله وحكماً من أحكامه.

فلما دخل اليهودي على المعز ذكر له القصة وقال: والله يا سيدي ما ظننت

---

(١) ترتيب المدارك ٧/ ٢٦٩ .

أن بإفريقية ملكاً غيرك إلا يومي هذا، ولقد وقفت بين يديك في حال غضبك الشديد، فما أدركني الفزع، ولا أصابني من الرعب ما أصابني في يومي هذا، فقال له المعز: إنَّما فعلت ذلك لأريك عز الإسلام، وهيبة العلماء المسلمين، وما ألبسهم الله من شعائر الأولياء، لعلك تسلم»[1].

ويبدو أن المعز لم يقصد بإرساله اليهودي إلى أبي عمران أن يريه عز الإسلام وهيبة علماء المسلمين لعله يسلم - كما زعم -، ويترجح أن يكون قال ذلك لإزالة تلك الصورة من ذهن اليهودي ويبقي الهيبة لنفسه.

ومما يؤكد ذلك أنَّ المعز كان يتربص بأبي عمران ويتصيد سقطاته لقطع علاقته بالعامة الذين كانوا تبعاً له، إلى درجة أنه كان يستغل اختلاف أبي عمران مع غيره من الفقهاء للطعن عليه وإبعاد العامة عنه.

قال عياض في ترجمة أبي بكر بن عبد الرحمن صاحب أبي عمران الفاسي: «وحاز الذكر ورئاسة الدين في وقته مع صاحبه - يعني أبا عمران - في المغرب بأسره حتى لم يكن لأحد معهما اسم يعرف، وكان الذي بينهما متباعدا جدا حتى طمع بذلك صاحب إفريقية - يعني المعز بن باديس - ليجد الحجة على العامة بشهادة أحدهما على الآخر، إذ كانت العامة طوعهما، فلما اختبرهما في ذلك لم يجد عندهما ما يوافقه ووجد ما بينهما أمتن مما يظن»[2].

فهذه القصة تدلُّ على أنَّ المعز لم تكن له علاقة حميمة بأبي عمران ليبعث إليه طبيبه الخاص يستفتيه في أموره، مما يؤكد أن يكون الغرض شيئاً آخر

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٦١ .

(٢) ترتيب المدارك ٧/ ٢٤٠ .

خفياً، وأن يكون جوابه لليهودي لم يرد به سوى الحفاظ على هيبته ومكانته في نفوس الشعب، إذ لو كان هدفه إظهار عزة الإسلام وهيبة العلماء من خلال شخص أبي عمران لما كان يتتبع عثراته ليشوه سمعته ويصرف العامة عنه. كيف يعقل - إذن - أن يرسل إليه طبيباً يهودياً ليسلم على يديه، وينضاف إلى محبيه، وهو يعمل ليل نهار من أجل أن يصرف الناس عنه وينفرهم منه!

ولقد كان من دأب المعز بن باديس أنَّه كلما لاحظ عالماً يلتف حوله الناس، ويسمع صوته ويطاع أمره كاد له، إمَّا بالتودد إليه، وإظهار العطف عليه، وإغرائه بالهدايا والمنصب ليكسبه إلى صفه، وإما بتدبير خطة له لعزله عن الناس أو طرده من البلاد.

وكان يفعل ذلك خوفاً من سلطة العلماء التي كانت أقوى من سلطة الحكام والأمراء، يقول ابن ناجي - وهو يتحدث عن أبي الحسن محمد بن عبد الصمد الواعظ -: قد ركب طريقة من الزهد والورع والخشية وصدق المقال في الوعظ لم يسلكها في وقته غيره، فطبق ذكره الآفاق وكثر ازدحام الناس إليه في مجلسه لاستماع وعظه، ومالت إليه القلوب والأسماع، وكثرت له الأتباع، حتى حذره السلطان، وخاف على نفسه منه، فاستعار السلطان منه بعض كتبه، وأظهر أنه أحب مطالعة شيء منها، فأرسل إليه بما أحب منها، فأقامت عنده أياما ثم أمر بردها، فتصفح الواعظ أوراقا منها، فوجد بينها بطاقة بخط السلطان كأنه نسيها بين أوراق كتابه، فإذا فيها: زعمت ملوك الفرس، وحكماء السير والسياسة أنَّ أهل التنمس والوعظ وتأليف

العامة، وإقامة المجالس، أضر الأصناف على الملوك، وأقبحهم أثراً في الدول، فيجب أن يتدارك أمرهم ويبادر إلى حسم الأذى منهم.

فلما قرأ الواعظ أبو الحسن محمد بن عبد الصمد البطاقة علم أنه أمر استعمل له، وقصد به، ونبه على الرأي فيه، فاستعمل الحج فخرج، وخرج معه عامة وخاصة أهل القيروان [١].

وبعث يوماً إلى أبي بكر بن عبد الرحمن رسولاً فقال له: يقول لك المعز: هل أنا عندك مسلم أم كافر؟ فقال أبو بكر للرسول: تتبع العلماء هذا التتبع وتستقصي عليهم، والله لئن لم تتركني لأعرضنك على الله عز وجل، فلم يعرض له بعد ذلك بشيء [٢].

إنَّ هذا الحرص الشديد من المعز بن باديس - وهو الذي عاش أبو الحسن اللخمي معظم أيامه في عهد ولايته- على تتبع أخبار علماء بلده وتقصي أحوالهم، والكيد لهم أحياناً، يدلُّ على أنَّ السلطة الحقيقية في هذه المرحلة كانت بيد العلماء والعباد، وأنَّ الحكام لم تكن لهم ثقة في رعيتهم، وأنهم كانوا يخافون على مناصبهم بسبب الظلم الذي كان يصدر منهم ومن المقربين إليهم وأعوانهم.

* * *

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٩١ .

(٢) نفسه ٣/ ١٦٨ .

المبحث الثاني
حالات بعض روافد العلم والمعرفة

المطلب الأول : الحالة الفقهية :

عرفت بلاد إفريقية قبل القرن الخامس الهجري مذاهب فقهية مختلفة، ووجد بها من فقهاء السنة : المالكية، والحنفية، والشافعية، وكان كل منهم يسعى إلى إثبات مذهبه والذود عنه بنشره في الربوع، والتأليف فيه، ومناظرة الغير ومناقشة مذهبه.

وقد كان المذهب الحنفي أكثر انتشاراً على عهد الأغالبة والفاطميين لارتباطه بالقضاء، وتبني السلطة الحاكمة له في غالب الأحوال.

غير أن منافسة المذهب المالكي له كانت قويةً، إذ بالرغم من تهميشه، ومضايقة الحكام له وبخاصة في مرحلة العبيديين، فإنَّه مع ذلك استطاع أن يثبت ذاته، ويذود عنها، ويجلب أتباعاً ومناصرين في كل مدائن إفريقية وقراها.

وظل يقاوم إلى أن آلت إليه الغلبة في نهاية المطاف واستبد بالساحة تماماً في القرن الخامس الهجري.

وقد أرجع بعض الباحثين السبب في انفراد المذهب المالكي بالساحة في القرن الخامس إلى القرار السياسي الذي اتخذه المعز بن باديس في هذا الشأن.

يقول محمد مخلوف : وكانت بها - أي بإفريقية- من مذاهب أهل

السنة، مذهب أبي حنيفة النعمان، ومذهب مالك، فظهر له حمل النَّاس على التمسك بمذهب مالك، وقطع ما عداه حسماً لمادة الخلاف بالمذاهب[1].

لكن يظهر أنَّ هذا القرار لم يكن نابعاً من إرادة مستقلة للسلطة الحاكمة، وإنما جاء استجابة للضغط القوي الذي كان يمارسه المالكية على رجال الحكم، وكان الهدف منه إرضاءهم، والحد من خطرهم، لما كانت لهم من سلطة ونفوذ في الأوساط الشعبية كما سبق بيان ذلك.

وإذا كان المذهب المالكي هو صاحب السيادة المطلقة بإفريقية في القرن الخامس الذي عاش فيه أبو الحسن اللخمي، فكيف كان وضعه؟ وما خصائصه ومميزاته في هذه المرحلة؟

من المعلوم أنه في بداية القرن الخامس فك الحصار عن المذهب المالكي الذي ظل مضروباً عليه طيلة حكم الأغالبة وعهد العبيديين، وتحرر من الجدال والمناظرة التي كانت تجري بينه وبين المذاهب الفقهية المنافسة، إذ لم يعد هناك وجود معتبر لهذه المذاهب، وتفرغ اتباعه لتحرير مسائله، وضبط رواياته وأقواله وتنقيحها.

لقد اتجه الفقهاء المالكية في هذه المرحلة إلى تركيز النظر في روايات المذهب وأقواله، وعكفوا على دراسة مؤلفات الأئمة السابقين، فقد وازنوا بين الأقوال في ضوء أصول المذهب وقواعده، وضبطوا مواضع الخلاف، وكشفوا عن أسبابه، وألحقوا التشبيه بمثله، وربطوا الفرع بأصله...

---

(١) شجرة النور ص: ١٢٨ (التتمة).

وقد ساعدهم التدرب على الجدل والمناظرات مع المذاهب الأخرى في المرحلة السابقة على دراسة المذهب والتعامل معه بعقلية نقدية تتوخى التحرير والتمحيص للأدلة والفروع.

وعلى الرغم من شيوع التقليد في هذه المرحلة، فإن ذلك لم يمنع كثيراً من الفقهاء من الاجتهاد المذهبي المنطلق من أصول المذهب وقواعده في تناول القضايا الطارئة، ودراسة المسائل المقررة.

ومن هؤلاء الفقهاء المجتهدين:

- أبو القاسم عبد الرحمن بن علي الشهير بابن الكاتب (ت ٤٠٨هـ). «كان أحد الفقهاء المستنبطين، والعلماء الراسخين»[١].

- أبو الطيب عبد المنعم المعروف بابن بنت خلدون. أحد شيوخ أبي الحسن اللخمي المشهورين (ت ٤٢١هـ) «أقواله معتبرة في مذهب مالك»[٢].

- أبو حفص عمر بن محمد العطار. «كان من المجتهدين المبرزين، من أئمة القيروان المعدودين»[٣].

- أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني (ت ٤٣٢هـ). قال فيه أبو الحسن القابسي: إن ذكر العابدون فأبو بكر بن عبد الرحمن أولهم، وإن ذكر المجتهدون فأبو بكر أولهم[٤].

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٥٥ .
(٢) نفس المصدر ٣/ ١٥٨ .
(٣) نفسه ٣/ ١٦٤ .
(٤) معالم الإيمان ٣/ ١٦٥ .

- أبو إسحاق التونسي: إبراهيم بن حسن (ت ٤٤٣هـ). جاء في ترتيب المدارك: وذكره بن عمار الميورقي في رسالته هو والسيوري فقال: لحقا من تقدمهما في العلم والورع، وأعجزا من يأتي بعدهما [١].

- أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث الشهير بالسيوري (ت ٤٦٢هـ). كان من المجتهدين المتسبين المعروفين في هذه المرحلة، وقد خالف مالكاً في بعض المسائل، وحلف بالمشي إلى مكة ألا يقول بقول مالك فيها [٢].

- أبو الحسن اللخمي (ت ٤٧٨هـ). «وهو مغرى بتخريج الخلاف في المذهب واستقراء الأقوال، وربما تبع نظره فخالف المذهب فيما ترجح عنده، فخرجت اختياراته في الكثير عن قواعد المذهب[٣]:

- أبو عبد الله المازري (ت ٥٣٦هـ). «إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المستقلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقة النظر»[٤].

إنَّ هؤلاء الأعلام وغيرهم ممن عرفوا في هذا العهد بالتعامل مع المذهب بعقلية متحررة من أسر التقليد، ودرسوه انطلاقا من أصوله وضوابطه، لمن الشواهد الواضحة على ازدهار الحركة الفقهية، وذيوع الاجتهاد المقيد بمختلف مستوياته في هذه المرحلة.

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ٥٨ .
(٢) معالم الإيمان ٣/ ١٨٣ .
(٣) ترتيب المدارك ٨/ ١٠٩ .
(٤) الغنية ص: ١٢٣ .

وبناء على ذلك أرى أنَّ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي قد جانب الصواب حينما أدخل القرن الخامس في طور شيخوخة الفقه وجموده، وعمم الحكم على جميع المذاهب الفقهية، قال: هذا الطور - أي طور الشيخوخة والهرم المقرب من العدم - مبدؤه من أول القرن الخامس إلى وقتنا هذا الذي هو القرن الرابع عشر، وذلك أنَّه وصل إلى منتهى قوته في القرون الأربعة السابقة، وتم نضجه، فزاد بعد حتى احترق، وذهبت عينه، ولم يبق إلا مرقه في القرن الخامس وما بعده..[1].

إن المعطيات التي وصلتنا عن المذهب المالكي في القرن الخامس تأبى أن ينسحب عليه هذا الحكم.

وإذا كان ما خلفه أبو عبد الله المازري، وأبو الحسن اللخمي، وابن عبد البر، وأبو الوليد الباجي، والقاضي ابن العربي المعافري، وابن بشير ونظراؤهم من الفقهاء المالكية في هذا العهد لا يعدو أن يكون مرق الفقه، فأين إذن عينه؟

ومما يؤكد ازدياد النشاط الفقهي في هذا العصر بإفريقية، كثرة المصنفات التي ظهرت فيه.

فبعد انفراد المذهب المالكي بالميدان الفقهي، وتوقف نشاط المذاهب الأخرى التي كانت منافسة، التجأ المالكية إلى خدمة مذهبهم بدراسته ونشره والتأليف فيه.

---

(١) الفكر السامي ٢/ ١٦٣ .

وقد عرفت حركة التأليف الفقهي في هذه المرحلة رواجاً ملحوظاً بإفريقية، وتميزت جل المؤلفات التي ظهرت فيها بالغزارة في المادة، وبالعمق في التحليل، حيث انصب جهود مؤلفيها على إبراز مستندات الروايات والأقوال، وتوجيهها وتعليلها، وتصحيحها، والكشف عن أسباب الاختلاف بين أئمة المذهب وتحرير مواضعه.

ومعظم هذه المؤلفات لها ارتباط بمدونة الإمام سحنون، المصدر الفقهي الأم للمذهب. ومنها كان منطلقها، لذلك عرفت باسم «التعاليق على المدونة».

غير أن هذا الارتباط الذي سمي تعليقاً في هذه المرحلة لم يكن مقصوداً به المعنى الشائع الآن لكلمة «التعليق» الذي يتضمن الإتيان بفقرة أو جملة أو كلمة، والتعليق عليها بما يناسبها من شرح أو توضيح أو تعقيب أو استدراك ... وإنما كان يطلق على كل عمل ينطلق من المدونة ولو على مستوى مراعاة عناوين كتبها وأبوابها وترتيبها فقط.

كما كان يطلق على كل مصنف فقهي ولو لم تكن له أي علاقة بكتاب آخر، إذ كثيراً ما نجدهم يقولون: قال فلان في تعليقه، ويقصدون به كتابه الخاص[1].

ولذلك لا أجد وجهاً لتحفظ بعض الباحثين من تسمية بعض المؤلفات

(١) من ذلك قول الدباغ في ترجمة أبي عبد الله المازري الشهير بالذكي: وله تعليق كبير في المذهب مستحسن خرج على ألف سؤال. معالم الإيمان ٣/ ٢٠٣.

التي تنتمي لهذه المرحلة تعليقاً، لما لم يجدوا فيها مواصفات التعليق بمعناه العرفي الشائع الآن [1].

ومن الفقهاء الذين عرفت لهم تعاليق على المدونة في هذا العصر:

- أبو إسحاق التونسي (ت ٤٤٣هـ): «له شروح حسنة، وتعاليق مستعملة، متنافس فيها على كتاب ابن المواز، وعلى كتب المدونة» [2].

- أبو القاسم عبد الخالق السيوري: «له تعليق على نكت من المدونة أخذه عنه أصحابه» [3].

- أبو الطيب عبد المنعم بن إبراهيم الشهير بابن بنت خلدون: «له على المدونة تعليق مفيد» [4].

- أبو القاسم عبد الرحمن بن محرز: «وله تصانيف حسنة، منها تعليق على المدونة سماه التبصرة» [5].

---

(١) منهم الشيخ النيفر، والشيخ محمد مختار السلامي، وإسماعيل باشا البغدادي، وقد تحفظ هؤلاء في إطلاق اسم التعليق على تبصرة أبي الحسن اللخمي، رغم أن كتب التراجم التي تحدثت عنها تسميها تعليقاً على المدونة.

(٢) ترتيب المدارك ٨/ ٥٨، وقد جاء في كتاب العمر عن تعليق التونسي: كتاب مشهور جداً بين فقهاء المالكية لما بيّن وقرّب، وينقل عنه كثيراً، وقد أشار المعلق إلى أن المكتبة العتيقة بالقيروان كانت تحتفظ بعدة أسفار منه. ٢/ ٦٦٨، ٦٦٩.

(٣) ترتيب المدارك ٨/ ٦٥.

(٤) نفس المصدر ٨/ ٦٧.

(٥) نفسه ٨/ ٦٨.

- عبد الحق بن محمد الصقلي: «ألف كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة، وألف أيضاً كتابه الكبير في شرح المدونة المسمى بتهذيب الطالب»[1].

- أبو عمران الفاسي: «له كتاب التعليق على المدونة»[2].

- أبو الحسن اللخمي: «له تعليق على المدونة مفيد حسن»[3].

- أبو عبد الله المازري: «له تعليق على المدونة»[4].

- أبو حفص عمر بن محمد العطار: «ولأبي حفص تعليق على المدونة أملاه سنة سبع وعشرين، أو ثمان وعشرين وأربعمائة وهو كتاب نبيل جداً»[5].

- أبو محمد عبد الحميد بن محمد الشهير بابن الصائغ (ت ٤٨٦هـ): «له تعليق على المدونة أكمل فيه الكتب التي بقيت على التونسي»[6] سماه الاستلحاق لكتاب أبي إسحاق[7].

وبالإضافة إلى كتب التعاليق على المدونة التي كثر عددها بشكل ملحوظ في القرن الخامس، ظهرت مؤلفات فقهية أخرى أذكر منها:

---

(١) نفسه ٨/ ٧٢-٧٣.

(٢) شجرة النور رقم ٢٧٦.

(٣) ترتيب المدارك ٨/ ١٠٩.

(٤) معالم الإيمان ٣/ ١٨٣.

(٥) نفسه ٣/ ١٦٤.

(٦) نفسه ٣/ ٢٠٢.

(٧) توجد منه نسخة بخزانة القرويين تحت رقم ٣٨٥.

- كتاب «الهداية» في الفقه لأبي محمد مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ)[1].

- كتاب «الأجوبة عن فروق مسائل مشتبهة في المذهب»[2] لأبي القاسم عبد الرحمن بن الكاتب (ت ٤٠٨هـ)، وله أيضاً كتاب كبير في الفقه قال عنه عياض: كتاب كبير مشهور في الفقه نحو مائة وخمسين جزءا»[3] ولم يذكر اسمه.

- كتاب «الشرح والتفصيل لمسائل المدونة»[4]، لأبي القاسم عبد الرحمن اللبيدي (ت ٤٣٠هـ) قال عنه عياض: وألف كتاباً جامعاً في المذهب كبيراً أزيد من مائتي جزء كبار في مسائل المدونة وبسطها والتفريع عليها، وزيادات الأمهات ونوادر الروايات»[5].

ووصفه الذباغ بقوله: وله كتاب في الفقه كبير جمع فيه بين النوادر لأبي محمد بن أبي زيد، وموطأ مالك، وغيره، فجمع فيه مذهب مالك كله[6].

---

(١) قال عنه ابن ناجي: وهو كتاب معروف سماه الهداية، رواه عنه جلة الناس، كأبي عبد الله بن عتاب، وأبي الوليد الباجي وغيرهما، معالم الإيمان ٣/ ١٧٢ . ويظهر أن هذا الكتاب ألفه بعد استقراره بالأندلس، لكن يبقى احتمال تأليفه إياه بالقيروان وارداً.

(٢) كتاب العمر ٢/ ٦٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٦٦٣ .

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٦٧١ .

(٥) ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٤-٢٥٥ .

(٦) معالم الإيمان ٣/ ١٧٥ .

- الجامع لمسائل المدونة، لمحمد بن عبد الله بن يونس (ت ٤٥١هـ)، قال عنه عياض: «عليه اعتماد الطلبة بالمغرب للمذاكرة»[١].

- كتاب المستوعب لزيادات مسائل المبسوط مما ليس في المدونة، لأبي القاسم عبد الرحمن بن رشيق[٢].

- كتاب في الفقه على مذهب مالك بن أنس، لأبي عبد الله محمد بن سعدون (ت ٤٨٥هـ)[٣].

- مؤلفات أبي القاسم خلف بن أبي القاسم المعروف بالبراذعي، وقد ذكر له عياض أربعة كتب في المذهب:

- التهذيب في اختصار المدونة[٤]، وصفه بقوله: اتبع في طريقة اختصار أبي محمد - يعني ابن أبي زيد -، إلا أنه جاء به على نسق المدونة، وحذف ما زاده أبو محمد.

وقد ظهرت بركة هذا الكتاب على طلبة الفقه، واهتموا بدرسه وحفظه، وعليه معول أكثرهم بالمغرب والأندلس ...

- كتاب مسائل المدونة.

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ١١٤، وهو قيد الطبع بدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، بدبي.

(٢) معالم الإيمان ٣/ ١٨٧.

(٣) معالم الإيمان ٣/ ١٩٨.

(٤) مطبوع بدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، بتحقيق محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ.

- كتاب الشروح والتمامات.

- كتاب اختصار الواضحة[١].

- الجامع لنكت الأحكام المستخرج من الكتب المشهورة في الإسلام، لأبي القاسم زيدون بن علي السبيبي، رواه جماعة من الأندلسيين عن ابنه أبي الفضل عبد الوهاب[٢].

وتتسم كثير من هذه المؤلفات التي ظهرت في هذا العصر (ق ٥)، وبخاصة منها التعاليق على المدونة، بكونها تجمع بين منهج البغداديين المالكية القائم أساساً على توجيه الروايات والأقوال وتعليلها والكشف عن مستنداتها، ومنهج القرويين المعتمد على ضبط نصوص المدونة وتصحيحها، وتحقيق الروايات والأقوال وتمحيص أسانيدها.

وهذه الطريقة في دراسة المذهب هي التي استفاد منها أبو الحسن اللخمي وبلور أدواتها في منهجه النقدي العام كما نص على ذلك المقري وغيره[٣]، وكما سيتضح لنا في الباب الثاني من هذا البحث حين الحديث عن المنهج النقدي عند أبي الحسن.

ومن المصادر الفقهية المالكية التي كانت متداولةً ورائجةً في بلاد إفريقية في هذا العصر، إلى جانب المؤلفات التي كتبت فيه:

---

(١) ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٦-٢٥٧ .

(٢) كتاب العمر ٢/ ٦٩١ .

(٣) أزهار الرياض للمقري ٣/ ٢٤ .

- مدونة الإمام سحنون بن سعيد التنوخي (ت ٢٤٠هـ)

- كتاب ابنه، محمد بن سحنون (ت ٢٥٦هـ) مثل كتاب «الإمامة» وكتاب الجامع المعروف بكتاب ابن سحنون.

- المجموعة لمحمد بن إبراهيم بن عبدوس (ت ٢٦٠هـ)

- الواضحة لعبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨هـ)

- الموازية لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الإسكندراني الشهير بابن المواز (ت ٢٦٩هـ)

- العتبية أو المستخرجة لمحمد بن عبد السلام العتبي (ت٢٥٥هـ)

- التفريع، لأبي القاسم عبد الله بن الحسن بن الجلاب (ت ٣٩٨هـ)

- مسائل الخلاف لأبي الحسن علي بن عمر بن القصار (ت ٣١٨ هـ)

- المبسوط للقاضي إسماعيل البغدادي (ت ٢٨٢هـ)

- كتب القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي (ت ٤٢٢هـ)، منها:

- المعونة لدرس مذهب عالم المدينة، والإشراف على نكت مسائل الخلاف، وعيون المسائل، والتلقين، وشرح المدونة، وشرح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني.

- كتاب الثمانية: لأبي زيد عبد الرحمن القرطبي.

- الزاهي، ومختصر ما ليس في المختصر، لابن شعبان: محمد بن القاسم بن شعبان (ت ٣٥٥هـ).

- مختصر عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤هـ).

- النوادر والزيادات، ومختصر المدونة، والرسالة، لأبي محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ).

وهذه المصنفات هي التي شكلت موارد أبي الحسن في تبصرته.

التعريف بأشهر الفقهاء المالكية في هذا العصر:

١- أبو الحسن القابسي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري، أصله من قابس، ونشأ بالقيروان، وبها تفقه على شيوخها آنذاك، ثُمَّ رحل إلى المشرق سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، وطاف بعدة بلدان، ولقي شيوخا كثيرين في الفقه والحديث[1]، وسمع منهم ثُمَّ عاد إلى القيروان سنة سبع وخمسين وثلاثمائة فتفرغ للتدريس والتأليف ونشر العلم.

وقد تخرج به كثير من الأجلاء أذكر منهم: أبا عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ)، وأبا بكر بن عبد الرحمن (ت ٤٣٢ هـ)، وأبا القاسم اللبيدي (ت ٤٣٠ هـ)، وأبا عبد الله المالكي (ت ٤٣٨ هـ)، وأبا القاسم بن الكاتب (ت ٤٠٨ هـ).

ومن مؤلفاته: «الممهد»، قال عنه الدباغ: وهو كتاب كبير كثير الفائدة: مبوب على أبواب الفقه جمع فيه بين الحديث والأثر والفقه، أجازه لجماعة

---

(١) وهو أول من أدخل صحيح البخاري إلى إفريقية، انظر: شجرة النور ص٩٧ رقم ٢٣٠ .

منهم أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني المقرئ[1]، وكتاب «الملخص»، وكتاب «المنبه للفطن»، و«رسالة في الاعتقادات»، و«رسالة في أحمية الحصون»، و«كتاب المناسك»، و«الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين».

وقد أجمع أهل عصره على إمامته في العلم والزهد، وصفه الدباغ بقوله: كان عالماً عاملاً جمع العلم والعبادة والورع والزهد والإشفاق والخشية ورقة القلب... حافظاً لكتاب الله ومعانيه وأحكامه، حافظاً للسنة، عالماً بعلوم الحديث والفقه واختلاف الناس، سلم له أهل عصره، ونظروه في العلم والدين والفضل[2].

توفي رحمه الله سنة (٤٠٣)[3].

٢- أبو القاسم بن الكاتب: عبد الرحمن بن علي الشهير بابن الكاتب، من فقهاء القيروان المعروفين بالاجتهاد، وصفه الدباغ بقوله: وكان أحد الفقهاء المستنبطين، والعلماء الراسخين، وكانت له فتاوى مشهورة»[4].

وقد رحل إلى المشرق وتجول في عدة بلدان، والتقى بكثير من شيوخ العلم، وكان قويا في المناظرة، وقد ناظر مرة أبا عمران الفاسي، وطالت بينهما المناظرة، حتى ابتل قميص أبي عمران بالعرق وصار كمن غسله في ماء[5].

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٣٦ .

(٢) نفس المصدر ٣/ ١٣٦

(٣) ترجمته في المصادر الآتية: معالم الإيمان ٣/ ١٣٦، ترتيب المدارك ٧/ ٩٣، شجرة النور الزكية ص٩٧ رقم ٢٣٠ . تراجم المؤلفين التونسيين ٥/ ٤٥-٤٩ .

(٤) معالم الإيمان ٣/ ١٥٥ .

(٥) ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٣ .

ومـن مؤلفاتــه:

أ- كتاب الأجوبة عن فروق مشتبهة في المذهب[1]، والكتاب يتضمن إجابات عن مجموعة من الأسئلة، وجهها إليه علي بن القاسم الطابثي البصري[2] أثناء مروره بمصر في رحلته إلى المشرق.

قال عياض: ولقيه أبو القاسم الطابثي بمصر وسأله عن فروق أجوبة في مسائل مشتبهة من المذهب، قال الطابثي: وقد كان أعضل جوابها كل من لقيته من علماء العراق، فأجابني أبو القاسم فيها ارتجالاً على ما كان عليه من شغل البال بالسفر[3].

وقال عياض أيضاً: وقد وقفت على جوابه في جزء منطو على أحد وأربعين فرقا[4].

ب- مناظرات مع أبي عمران الفاسي، قال عنها عياض: وبينهما في ذلك خلاف ونزاع ومراجعة مسائل مشهورة نقلت عنهما[5].

ج- تأليف في مسألة الملاعنة إذا نكلت ثُمَّ أرادت الرجوع إلى اللعان. وهو تأليف طويل ناصر فيه فتياه، وبين وجه قوله[6].

---

(١) كتاب العمر ٢/ ٦٦٣ .
(٢) ترجمته في ترتيب المدارك ٧/ ٢٢٧ .
(٣) ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٣ .
(٤) نفس المصدر ٧/ ٢٥٣ .
(٥) نفس المصدر ٧/ ٢٥٣ ، كتاب العمر ٢/ ٦٦٤ .
(٦) كتاب العمر ٢/ ٦٦٤ .

د- كتاب ضخم في الفقه، قال عنه عياض: ولأبي القاسم كتاب كبير مشهور في الفقه نحو مائة وخمسين جزءاً [(١)].

توفي رحمه الله أثناء عودته من المشرق سنة ثمان وأربعمائة (٤٠٨هـ) [(٢)].

٣- أبو حفص العطار: عمر بن محمد، من أئمة القيروان المشهورين في هذا العصر، ومن الفقهاء الذين وفقوا في التدريس والتعليم والإفتاء.

وصفه الدباغ بقوله: كان من المجتهدين المبرزين، ومن أئمة الفقه المعدودين، انتفع به خلق كثير من الناس... وكان موفقاً في أجوبته، لم ير معلماً بالقيروان أحسن منه تعليماً [(٣)].

ولم يذكر لأبي حفص العطار من المؤلفات سوى تعليقه على المدونة، وهو من أحسن ما كتب عليها، قال عنه الدباغ: ولأبي حفص تعليق على المدونة أملاه سنة سبع وعشرين، أو ثمان وعشرين وأربعمائة، وهو كتاب نبيل جدا [(٤)].

وتوجد نقول كثيرة منه في المؤلفات التي ظهرت بعده مثل تبصرة اللخمي، وشرح التلقين، والتعليقة لأبي عبد الله المازري، والتنبيه على مبادئ التوجيه لابن بشير، وفي المعيار للونشريسي فتاوى ونقول كثيرة منسوبة لأبي حفص.

---

(١) ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٣، ومعالم الإيمان ٣/ ١٥٥ .

(٢) ترجمة في ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٢-٢٥٣، ومعالم الإيمان ٣/ ١٥٥، وكتاب العمر ٢/ ٦٦٣ .

(٣) معالم الإيمان ٣/ ١٦٤ .

(٤) معالم الإيمان ٣/ ١٦٤ .

ولم تنص كتب التراجم على تاريخ وفاته، بل اكتفت بالإشارة إلى أن وفاته كانت قبل شيخه أبي بكر بن عبد الرحمن.

وقد ذكر حسن حسني عبد الوهاب أن وفاته كانت خلال سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (٤٢٨هـ) [١].

٤- أبو بكر بن عبد الرحمن: أحمد بن عبد الرحمن الخولاني، من أئمة القيروان الذين كانت لهم الهيبة لدى السلاطين، نظراً لمواقفه الصارمة من المنكر أيًّا كان مرتكبه، وللتعلق المتين للعامة به إلى حد أنهم كانوا لا يخالفون له أمراً [٢].

وقد نشأ أبو بكر في القيروان وبها تعلم على شيوخها آنذاك مثل أبي محمد عبد الله بن أبي زيد (ت ٣٨٦هـ) وأبي الحسن القابسي (ت ٤٠٣هـ)

وذكر الدباغ أن أبا بكر لازم أبا الحسن القابسي وانقطع إليه، حتى لم يكن في أصحابه مثله، وأباح له أبو الحسن الفتيا في حياته [٣].

وقد رحل أبو بكر إلى المشرق على عادة معاصريه، ولقي شيوخاً عدة أجازوه كلهم إجازة عامة [٤].

ثُمَّ عاد إلى القيروان فتفرغ للتدريس ونشر العلم في ربوع إفريقية، وانتفع به خلق كثير، وتخرج به فقهاء أجلاء أمثال: أبي إسحاق التونسي

---

(١) كتاب العمر ٢/ ٦٦٥ .

(٢) وقد سبق ذكر بعض مواقفه من السلطة الحاكمة.

(٣) معالم الإيمان ٣/ ١٦٥ .

(٤) نفس المصدر ٣/ ١٦٥ .

(ت٤٤٣هـ)، وأبي القاسم بن محرز (ت ٤٥٠ هـ)، وأبي حفص العطار (ت٤٢٨هـ)، وأبي الطيب بن بنت خلدون (ت ٤٣٥ هـ)، وأبي القاسم السيوري (ت٤٦٠هـ)، وأبي عبد الله محمد بن سعدون، صاحب كتاب إكمال تعليق التونسي على المدونة (ت ٤٨٦هـ) وأبي بكر عبد الله بن محمد الشهير بالمالكي، صاحب رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية وزهادها (ت ٤٣٨هـ). وأبي محمد عبد الحق بن هارون، صاحب النكت والفروق لمسائل من المدونة والمختلطة (ت ٤٦٦هـ)، وغيرهم.

وقد كثر تلاميذه وأتباعه من العلماء والصلحاء وتجاوز عددهم المائة، قال الدباغ: كان أصحابه نحو المائة والعشرين كلهم يقتدى بهم(١).

وقد التف النَّاس حوله، لأنَّه كان جامعاً بين العلم المتين والخلق الرفيع والشجاعة القوية في مواجهة الظلم والطغيان، قال عنه أبو الحسن القابسي: إن ذكر العابدون فأبو بكر بن عبد الرحمن أولهم، وإن ذكر المجتهدون فأبو بكر أولهم، وإن ذكر المتفقهون فأبو بكر أولهم(٢).

ووصفه عياض بقوله: « وحاز الذكر ورئاسة الدِّين في وقته مع صاحبه (يعنى أبا عمران الفاسي) في المغرب بأسره حتى لم يكن لأحد معهما اسم يعرف»(٣).

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٦٥ .

(٢) نفسه ٣/ ١٦٦ .

(٣) ترتيب المدارك ٧/ ٢٤٠ .

وقال عنه الدباغ: كان أحد الفقهاء المبرزين، والحفاظ المعدودين، أجمع أهل عصره أنه لم يكن في وقته أحفظ منه ...[(١)].

توفي رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة (٤٣٢هـ)[(٢)].

٥- أبو عمران الفاسي: هو أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي القيرواني، أصله من فاس، واستوطن القيروان وتفقه بها على بعض شيوخها آنذاك، كأبي الحسن القابسي، وأبي بكر الدويلي، وعلي بن أحمد اللواتي السوسي، ثُمَّ رحل إلى الأندلس فاستقر مدة بقرطبة أخذ خلالها على علمائها الفقه والحديث، ثُمَّ اتجه نحو المشرق وجاب عدة بلدان إلى أن انتهى إلى بغداد، وكان بها يومئذ كثير من العلماء المالكية فرحبوا به وأقروا بعلمه وفضله، وكان يتردد على دروس القاضي أبي بكر الباقلاني وهو إذ ذاك شيخ المالكية بالعراق-، وقد تعجب الباقلاني من رسوخ قدمه في المذهب المالكي وقال له يوماً: لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر-وكان يومئذ بالموصل- لاجتمع فيها علم مالك، أنت تحفظه وهو ينصره، ولو رآكما مالك لسر بكما[(٣)].

وبعدما قضى مدة ببغداد أخذ خلالها علم الأصول على الباقلاني، عاد إلى القيروان ومعه علم غزير فتفرغ للتدريس والتأليف.

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٦٦ .

(٢) ترتيب المدارك ٧/ ٢٤١ .

(٣) ترتيب المدارك ٧/ ٢٤٦ .

وقد ذكر القاضي عياض أن أبا عمران لما عاد إلى القيروان وظهر علمه عزم كبار أصحاب أبي بكر بن عبد الرحمن على الذهاب إليه وحضور مجلسه فقال بعضهم: إن ذلك يعز على شيخنا، لكنهم قرروا أخيراً أن ينضموا إلى مجلسه وقالوا: لا يحل لنا التخلف عن مثله [1].

وكان يدرس الفقه والقرآن وعلومه، وكان له رسوخ متين في هذه العلوم، قال عنه الدباغ: كان فقيهاً عالماً بفنون العلم، منها القرآن وعلومه والحديث وعلله ورجاله والفقه البارع [2].

وقد رحل إليه طلبة من الأندلس وفاس وسبتة، وتخرجوا به مع تلاميذ أبي بكر بن عبد الرحمن الذين انضموا إلى مجلسه، ونشروا علمه وفتاواه في الآفاق فصار إماماً في المغرب كله، وحصلت له المشيخة بالقيروان وحاز هو وصاحبه أبو بكر بن عبد الرحمن رئاسة العلم حتى لم يكن لأحد معهما اسم يذكر [3].

وقد خلف أبو عمران كتباً في الفقه والحديث، منها تعليق على المدونة لم يكمله، وصفه محمد مخلوف بأنه كتاب جليل [4]. وتوفي رحمه الله سنة ثلاثين وأربعمائة (٤٣٠هـ).

---

(١) ترتيب المدارك ٧/ ٢٤٨ .

(٢) معالم الإيمان ٣/ ١٦٠ .

(٣) ترتيب المدارك ٧/ ٢٤٠ .

(٤) شجرة النور رقم ٢٧٦، والفكر السامي ٢/ ٢٠٥ .

٦- أبو القاسم اللبيدي: وهو عبد الرحمن بن محمد الشهير باللبيدي نسبة إلى قرية لبيدة[١].

نشأ بالقيروان وتعلم بها على يد أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي وغيرهما، وبعدما أكمل دراسته بعثه شيخه القابسي إلى المهدية ليفقه أهلها، وكانت إليه الرحلة من أقطار المغرب والأندلس، وأخذ عنه كثير من الفقهاء الأندلسيين والقرويين[٢].

وكان للبيدي تعلق بالصالحين، يتردد على العباد في الربط ويسمع منهم، وقد صحب الشيخ أبا إسحاق الجبنياني صاحب الطريقة وانتفع به، وألف كتاباً في مناقبه[٣].

وقد أطال الله عمره وبقي بعد أصحابه فحاز رئاسة العلم والتشييخ فيه بالقيروان[٤] ومن مؤلفاته الفقهية:

- الشرح والتفصيل لمسائل المدونة، وهو كتاب كبير جامع في المذهب أزيد من مائة جزء في مسائل المدونة وبسطها والتفريع عليها وزيادة الأمهات ونوادر الروايات[٥].

---

(١) قرية كانت عامرة بالقرب من جبنيانة، تقع في جنوب طرابلس، كتاب العمر ٢/ ٦٧١.
(٢) ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٤.
(٣) معالم الإيمان ٣/ ١٧٥.
(٤) ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٤.
(٥) ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٤-٢٥٥، كتاب العمر ٢/ ٢٧١.

- الملخص: شرح به مدونة سحنون [1].

وكانت وفاته - رحمه الله - سنة (٤٤٠ هـ) وعمره ثمانون سنة [2].

٧- ابن يونس: أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي، يعرف في كتب الفقه بابن يونس وهو الشائع، ويَرد أحياناً باسم الصقلي.

وينسب إلى صقلية لأنه نشأ بها وتعلم بها على شيوخها قبل أن يستقر بالقيروان في أواخر القرن الرابع.

وقد عاش مدة طويلة بالقيروان التقى خلالها بشيوخها، وأخذ عنهم، ثُمَّ رحل منها عند هجوم أعراب بني هلال عليها، واستقر به المقام في المهدية، وظل بها يدرس ويجاهد الأعداء إلى أن توفي سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (٤٥١هـ) ودفن برباط المنستير حذو القصر الكبير، ومازال معروفاً باسم سيدي الإمام [3].

قال أبو الحسن الحجوي: زرت قبره وعليه بناء فخم [4].

وقد خلف ابن يونس كتاباً ضخماً في شرح المدونة سماه «الجامع لمسائل المدونة والأمهات» وهو معتمد في المذهب لا يخلو مصنف ألف بعده من النقل عنه، وقد عرف عند المالكية بالمصحف، لصحة مسائله ووثوق صاحبه [5].

---

(١) ترتيب المدارك ٧/ ٢٥٥ .

(٢) معالم الإيمان ٣/ ١٧٦ .

(٣) كتاب العمر ٢/ ٦٧٦ .

(٤) الفكر السامي ٢/ ٢١٠ .

(٥) الفكر السامي ٢/ ٢١٠ .

وعليه كان اعتماد الطلبة بالمغرب للمذاكرة [1].

وأقوال ابن يونس في المذهب معتبرة في الإفتاء، وقد ضمن الشيخ خليل مختصره كثيراً منها، - وقد اشترط أن لا يذكر فيه إلا ما يفتى به في المذهب - وهي التي يعبر عنها بلفظ الترجيح، فحيثما عبر بالترجيح فالمقصود ما رجحه ابن يونس واختاره، سواء رجحه من خلاف وقع قبله في المذهب أو أضافه من عنده [2].

ومن الفقهاء المشهورين أيضاً في هذه الفترة أبو الطيب عبد المنعم بن إبراهيم الكندي الشهير بابن بنت خلدون (ت ٤٣٥ هـ)، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محرز (ت ٤٥٠هـ) وأبو إسحاق التونسي: إبراهيم بن حسن (ت ٤٤٣ هـ) وأبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث الشهير بالسيوري (ت ٤٦٠ هـ)، وهؤلاء سأترجم لهم ضمن شيوخ أبي الحسن اللخمي.

المطلب الثاني: الحديث والقراءات:

المسألة الأولى: الحديث:

إذا كان بلاد الأندلس قد ازدهر بها الحديث النبوي رواية ودراية منذ وقت مبكر على يد محمد بن وضاح (ت ٢٧٧هـ) وبقي بن مخلد (ت ٢٧٦هـ) وتلميذهما قاسم بن أصبغ البياني (ت ٣٤٠هـ) وأضرابهم من المحدثين الأندلسيين الذين كانت لهم روايات واسعة عن كبار أئمة هذا الشأن، فإنَّ بلاد

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ١١٤ .

(٢) انظر: مقدمة مختصر خليل .

إفريقية كان بها الحديث غريباً خلال هذه الفترة، وكان الغالب على أهلها الفقه والمسائل.

وقد ازدادت غرابته في عهد العبيديين الذين ضربوا حصاراً شاملاً على علماء السنة، وضايقوا الفقهاء والمحدثين ذوي التوجه السلفي السني، وظل الوضع على هذه الحال إلى أواخر القرن الرابع بعدما رحل بنو عبيد عن بلاد إفريقية.

وبرحيل العبيديين وقيام دولة الصنهاجيين في إفريقية بدأ الانفراج عن الاتجاه السني، وأخذت المصنفات الحديثية، غير المرغوب فيها لدى الفاطميين، تفد على البلاد وتحتل مكانها في مجالس الدرس بكل المراكز العلمية.

كما نشطت الرحلة إلى المشرق للقاء شيوخ الحديث والأخذ عنهم.

ومن أشهر العلماء الذين رحلوا إلى المشرق وعادوا إلى القيروان في أواخر القرن الرابع بمرويات ومصنفات حديثية جديدة، علي بن محمد بن خلف المعافري الشهير بابن القابسي المتوفى سنة ثلاث وأربعمائة (٤٠٣ هـ) وهو أول من أدخل صحيح الإمام البخاري إلى إفريقية، رواه عن أبي زيد محمد بن أحمد المروزي، وأبي أحمد محمد بن محمد الجرجاني، كلاهما عن الفربري عن أبي عبد الله البخاري[1].

---

(١) انظر: شجرة النور الزكية ص ٩٧ رقم ٢٣٠، ومقدمة فتح الباري ٩-١٠.

وأدخل أيضاً سنن النسائي، رواه عن حمزة بن محمد الكناني الحافظ عن الإمام النسائي[1].

ورغم أن الرجل كان أعمى فإن كتبه من أصح الكتب وأضبطها، جاء في ترتيب المدارك: وكان أعمى لا يرى شيئاً، وهو مع ذلك من أصح الناس كتباً وأجودهم ضبطاً وتقييداً، يضبط كتبه بين يدي ثقات أصحابه، والذي ضبط له البخاري في سماعه عن أبي يزيد بمكة أبو محمد الأصيلي[2] بخط يده[3].

وقد كان لأبي الحسن القابسي دور كبير في ازدهار الحركة الحديثية في إفريقية أواخر القرن الرابع وطيلة الخامس، إذ بعد رجوعه من المشرق جلس للتدريس بالقيروان، وكان الطلبة يفدون عليه من الأقطار المغربية والأندلسية.

وممن تخرجوا عليه وحملوا المشعل بعده، أبو عمران الفاسي، وابن عتاب الأندلسي، وأبو عبد الله المالكي، وأبو بكر عتيق السوسي، وأبو بكر بن محرز، ومكي بن أبي طالب، وأبو عمرو الداني الأندلسي، وأبو حفص العطار، وأبو عبد الله الخواص، والمهلب بن أبي صفرة ...[4].

وكان أبو الحسن جامعاً بين الرواية والدراية في مجال الحديث، قال عنه القاضي عياض: وكان واسع الرواية عالماً بالحديث وعلله ورجاله ...[5].

---

(١) شجرة النور ص ٩٧ رقم ٢٣٠ .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي (ت ٣٩٢هـ) وقد صحب ابن القابسي في رحلته إلى المشرق. انظر: ترجمته في الديباج ٢٢٤ رقم ٢٧٣ .

(٣) ترتيب المدارك ٧/ ٩٣ .

(٤) ترتيب المدارك ٧/ ٩٥-٩٦، وشجرة النور ٩٧ رقم ٢٣٠ .

(٥) ترتيب المدارك ٧/ ٩٣ .

ووصفه ابن خلكان بقوله: كان إماماً في علم الحديث ومتونه وأسانيده وجميع ما يتعلق به[1].

ومن مصنفاته الحديثية «الملخص للمتحفظين لما في الموطأ من الحديث المسند»، جمع فيه ما اتصل به إسناده من حديث مالك في الموطأ رواية ابن القاسم، وعدد أحاديثه ٥٢٠ حديثا، وهو أشهر تآليفه في الحديث وأجلها[2].

ومن المحدثين المعاصرين لابن القابسي، إسماعيل بن إسحاق بن عذرة، وهو أول من بوب صحيح الإمام مسلم، قال ابن رشيد الأندلسي: إن الإمام مسلماً بن الحجاج القشيري وضع مسنده في الحديث غير مبوب، فبوبه أبو بكر الفقيه القيرواني وكان رجلاً صالحاً[3] توفي في أوائل القرن الخامس.

ومنهم أيضاً أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت ٤٠٢ هـ) عرف له كتابان في الحديث:

- النامي في شرح الموطأ.

- النصيحة في شرح البخاري، وهو من أوائل الذين شرحوا البخاري من علماء إفريقية.

وخلال القرن الخامس برز عدد من الأعلام في مجال الحديث أسهموا في ازدهار الحركة الحديثية في هذه الربوع، من هؤلاء.

أ- أبو عمر عثمان بن أبي بكر الصفاقسي الشهير بابن الضابط

---

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) كتاب العمر ١/ ٢٧٧-٢٧٨.

(٣) نفس المصدر ١/ ٢٨٥.

(ت٤٤٤هـ) وقد رحل هذا الرجل إلى المشرق ولقي أعلاماً كباراً في الحديث أمثال أبي ذر الهروي، وأبي الطيب الطبري: وأبي نعيم الأصبهاني صاحب كتاب «حلية الأولياء» (ت ٤٣٠هـ)، وقد كتب عن أبي نعيم وجده مائة ألف حديث[١].

وصفه بن بشكوال بقوله: وكان حافظاً للحديث وطرقه وأسماء رجاله ورواته منسوباً إلى معرفته وفهمه، وكان يملي الحديث من حفظه ويتكلم على أسانيد ومعانيه ...[٢].

وهو من أوائل الذين أدخلوا جامع الترمذي إلى إفريقية، رواه عن شيخه محمد بن علي بن عبد الملك الحافظ عن شيخه أبي محمد الحسن بن إبراهيم عن أبي عيسى الترمذي[٣].

وقد رحل إلى الأندلس سنة ست وثلاثين وأربعمائة (٤٣٦هـ) وأسمع الحديث بها، وحدث عنه مشيختها وعلماؤها[٤].

وذكره أبو عمر بن عبد البر في كتابه: «أسماء الرجال الذين لقيتهم» وقال: وكانت له رواية واسعة، وكتب كثيرة، وهو أول من أدخل الأندلس غريب الحديث للخطابي[٥].

---

(١) الصلة لأبي القاسم بن بشكوال ٢/ ٣٨٨، وشجرة النور ١٠٩ رقم ٢٨٦ .
(٢) الصلة ٢/ ٣٨٨ .
(٣) فهرست ابن خير ١٢١ .
(٤) الصلة ٢/ ٢٨٨ .
(٥) شجرة النور ١٠٩ رقم ٢٨٦ .

ومن مؤلفاته الحديثية :

- عوالي الحديث، يعرف بعوالي السفاقصي في جزء ضخم كتبها ابن الضابط إلى أبي محمد بن عبد الرحمن بن عتاب، وكثير ما يرد ذكره في مسانيد الحديث[١].

- فهرست تضم مروياته.

ب- أبو عبد الملك مروان بن علي البوني، (توفي قبل الأربعين وأربعمائة) كان له اشتغال بالحديث، ولقي عدداً من أئمته وروى عنهم، من أشهرهم: أبو محمد الأصيلي الأندلسي، وأحمد بن نصر الداودي.

ومن تلاميذه أبو عمر الحذاء، وحاتم الطرابلسي، قال عنه: كان رجلاً فاضلاً حافظاً ناقداً في الفقه والحديث[٢].

ومن مؤلفاته في الحديث: شرح الموطأ، وصفه ابن فرحون بقوله: وهو مشهور حسن[٣].

ج- أبو عمران الفاسي (ت ٤٣٠هـ) وهو من العلماء الذين كان لهم اشتغال بالحديث، فقد رحل إلى الأندلس ولقي عدة مشايخ بها، وروى عنهم، منهم أبو محمد الأصيلي، وعبد الوارث بن سفيان، وأبو عثمان سعيد ابن نصر، ورحل أيضاً إلى المشرق وسمع من عدة شيوخ في الحديث من

---

(١) كتاب العمر ١/ ٢٩٢ .

(٢) الصلة ٢/ ٥٨١، وترتيب المدارك ٧/ ٢٥٩ .

(٣) الديباج المذهب ٤٢٣ .

أشهرهم أبو ذر الهروي، ثُمَّ عاد إلى القيروان وجلس للتدريس بها، وكان يقرئ الناس القراءات، ثُمَّ تخلى عن الإقراء وتفرغ لتدريس الفقه وإسماع الحديث[1].

د- أبو الرجال بن حسن المؤدب، من أهل القيروان، درس بها ثُمَّ انتقل إثر زحفة الهلاليين عليها إلى المهدية وبقي بها إلى أن توفي[2].

كان له اشتغال بالحديث والعناية بالروايات، ومن مصنفاته في هذا المجال:

- مجموع أحاديث سفيان بن عيينة، من روايات عمرو بن دينار.
- أحاديث ابن شهاب الزهري[3].

هـ- أبو الحسن اللخمي، كان له اشتغال بالحديث، وكان يدرس صحيح البخاري في مسجده بسفاقص[4]، وقد أخذه عنه كثير من طلابه، منهم أبو الفضل بن النحوي الذي أدخله إلى فاس في أواخر القرن الخامس.

و- أبو عبد الله محمد بن عمر التميمي المازري (ت ٥٣٦ هـ)، كانت له معرفة واسعة بالحديث، وهو أول من شرح صحيح الإمام مسلم، لم يسبقه أحد إلى شرحه[5].

---

(١) الصلة ٢/ ٥٧٥.
(٢) لم تذكر كتب التراجم تاريخ وفاته.
(٣) كتاب العمر ١/ ٢٨٧.
(٤) تراجم المؤلفين التونسيين ٤/ ٢١٥، وكتاب العمر ٢/ ٤٦٤.
(٥) المعلم بفوائد مسلم مقدمة المحقق ١/ ١٨٩.

المسألة الثانية : القراءات :

ازدهرت القراءات القرآنية في هذه المرحلة بإفريقية، وكثر المتخصصون فيها، وظهرت فيها مؤلفات كان لها أثر كبير في المصنفات التي كتبت بعد في هذا العلم، مثل مؤلفات مكي بن أبي طالب، ومؤلفات محمد بن سفيان الهواري، وكتب ابن عمار المهدوي وغيرها.

وقد حرص كثير من الأعلام البارزين في مجال القراءات في هذا العصر على التمسك بالسند والحفاظ عليه، ومن أجل ذلك رحلوا إلى المشرق للقاء أئمة القراءات الذين كانوا يروونها بأسانيدها المتصلة، كما اهتموا إلى جانب ذلك بتعليل القراءات وتوجيهها وتنقيحها.

ولعل جمعهم بين الرواية والدراية في هذا الفن هو السبب في كثرة الوافدين عليهم من مختلف أقطار المغرب والأندلس ممن كانت لهم رغبة في دراسة هذا العلم وإتقانه.

ومن المشتهرين بالقراءات في هذا العهد :

أ- محمد بن سفيان الهواري، أخذ القراءات عن المقرئ الكبير أبي الطيب عند المنعم بن غلبون، رحل إليه إلى مصر ولازمه مدة، ولما رجع إلى القيروان انتصب للتدريس بها فأخذ عنه خلق كثير من الإفريقيين والأندلسيين.

قال عنه الدباغ : كان من أوحد زمانه في علم القراءات[1].

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٥٦ .

وذكره الذهبي في كتابه «معرفة القراء الكبار»[١].

ومن مؤلفاته القرائية:

- الهادي في القراءات: روي عنه بطرق متعددة، والنقل عنه كثير في المصنفات التي ظهرت بعده في هذا الفن.

- اختلاف قراء الأمصار في عدد آي القرآن، وقد ذكره ابن خير في مروياته بسند متصل إلى مؤلفه[٢].

- التذكرة في القراءات.

- الإرشاد في مذهب القراء.

- الرد على أبي الحسن الأنطاكي في إنكاره المد لورش[٣].

وبعد وفاة أبي سفيان سنة ٤١٥هـ تصدر تلميذه أبو حفص عمر بن النفوسي لإقراء مصنفاته بالمهدية[٤].

ب- أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي، ولد ونشأ بالمهدية وأخذ القراءات عن محمد بن سفيان الهواري، وعليه كان اعتماده، ثُمَّ رحل إلى المشرق ولقي كثيراً من شيوخ القراءات وأخذ عنهم، ثُمَّ عاد إلى بلده فجلس للتدريس مدةً أخذ عنه خلالها كثير من طلبة المغرب والأندلس.

---

(١) انظر: ١/ ٣٨٠-٣٨١.

(٢) فهرست ابن خير ٢٤.

(٣) كتاب العمر ١/ ١٢٠-١٢١.

(٤) نفس المصدر ١/ ١١٩.

وفي حدود سنة ٤٣٠هـ انتقل إلى الأندلس واستقر به المقام في دانية، وبقي بها إلى أن توفي بعد سنة (٤٤٠هـ).

وقد كان ابن عمار مقدماً في التفسير والعربية والقراءات[١].

من مؤلفاته في القراءات:

- الهداية في مذاهب القراء السبعة، وهو من أهم تصانيفه، وبه اشتهر في هذا الفن، وقد شرحه في كتاب آخر سماه: الموضح في تعليل وجوه القراءات، توجد نسخة منه مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط رقم ١٣٩ق[٢].

- بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات.

- هجاء مصاحف الأمصار، توجد نسخة منه في دار الكتب المصرية رقم ٦٤٠، ونسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية رقم ٩٨ قراءات[٣].

ج- مكي بن أبي طالب، ولد بالقيروان سنة خمس وخمسين وثلاثمائة (٣٥٥هـ) وبها نشأ وحفظ القرآن، ثُمَّ رحل إلى مصر مع والده فلقي بها شيوخ القراءات وأخذ عنهم، ثُمَّ عاد إلى القيروان وبقي بها مدة درس خلالها الفقه على أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، وأبي الحسن القابسي وغيرهما من شيوخ ذلك الوقت، ثُمَّ عاد مرة ثانية إلى مصر بعد أن أدى فريضة الحج والتزم شيخ المقرئين بها آنذاك وهو أبو الطيب عبد المنعم بن غلبون الحلبي حتى أخذ

(١) كتاب العمر ١/ ١٢٢ .

(٢) نفس المصدر ١/ ١٢٥ .

(٣) كتاب العمر ١/ ١٢٥ .

القراءات عنه بمختلف الروايات، وبعدئذ رجع إلى القيروان واستقر بها مدة، ثُمَّ رجع إلى مصر مرة ثالثة لاستكمال ما بقي من الروايات القرائية، وعاد إلى القيروان وجلس لتدريس علم القراءات بها مدة ثُمَّ رحل إلى الأندلس وبقي بها إلى أن توفي سنة (٤٣٧هـ)[١] وقد خلف مكي مؤلفات كثيرة في القراءات، كتب بعضها في القيروان وألف كثيراً منها في الأندلس[٢].

ومن أشهر كتبه التي ألفها في القيروان قبل رحيله إلى الأندلس، التبصرة في القراءات السبع[٣]، وهي من أجود مصنفاته، وقد نشره معهد المخطوطات العربية بالكويت بتحقيق محيي الدين رمضان.

د- أبو بكر بن أبي طاعة، وصفه ابن ناجي بقوله: وكان من أهل المعرفة بالقراءات، وطرقها في غاية التجويد للتلاوة[٤] توفي سنة (٤٣٨هـ).

هـ- أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيوري، شيخ أبي الحسن اللخمي (ت ٤٦٠هـ)، كانت له عناية بالقراءات، أخذها عن أبي عبد الله بن سفيان المقرئ[٥].

و- أبو علي حسن بن حمدون المقرئ، وصفه الدباغ بقوله: كان من

---

(١) من مصادر ترجمة مكي: ترتيب المدارك ٨/ ١٣-١٤، معالم الإيمان ٣/ ١٧١، الديباج المذهب ٢/ ٣٤٣، بغية الوعاة ٢/ ٢٩٨، معرفة القراء الكبار ١/ ٣٩٤، كتاب العمر ١/ ١٢٨.

(٢) انظر مؤلفاته مع أماكن وجودها في كتاب العمر ١/ ١٣٠-١٤٤.

(٣) كتاب العمر ١/ ١٣٠.

(٤) معالم الإيمان ٣/ ١٧٢.

(٥) معالم الإيمان ٣/ ١٨١.

العلماء المعدودين، عالماً بوجوه القراءات، أخذها عن أبي عبد الله بن سفيان، وكان إماماً فيها، انتفع به خلق كثير[1].

ز- أبو عبد العزيز بن محمد البكري المقرئ، قال عنه الدباغ: كان من كبار أصحاب بني عبد الله بن سفيان وأفاضلهم... لم يكن في وقته أعلم بالقراءة منه، أخذ ذلك عنه عدد كثير من الناس وانتفعوا به رحمه الله[2].

ح- أبو الحسن علي بن عبد الغني المقرئ، الشهير بالمصري، وصفه الدباغ بقوله: كان إماماً في القراءات السبع قرأ على أبي بكر عتيق بن أحمد القصري عشر سنين ختم عليه فيها القراءات السبع تسعين ختمة[3].

هؤلاء هم بعض الأعلام الذين كان لهم اهتمام بالقراءات القرآنية في هذه المرحلة.

وقبل إنهاء الحديث عن هذا الفن أشير إلى أن أول من أدخل قراءة نافع إلى القيروان محمد بن خير القيرواني الذي رحل إلى المشرق في صدر المائة الرابعة فأخذ عن علمائه وقرائه وعاد إلى إفريقية بقراءة نافع، وكان الغالب عليهم قراءة حمزة، فشاع حرف نافع من يومئذ في أقطار المغرب بعد أن كان لا يقرأ بها إلا الخواص، واستمر الحال على ذلك إلى اليوم[4].

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٨٦.

(٢) نفسه ٣/ ١٨٦.

(٣) نفسه ٣/ ٢٠٢.

(٤) مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي ١/ ٧٥.

المطلب الثالث: العقائد والجدل:

لقد دخلت عقيدة السلف إلى إفريقية مع الفاتحين الأول، وانتشرت في ربوعها بفضل علماء السنة وبخاصة تلاميذ الإمام مالك الذين أدخلوا مذهبه الفقهي والعقدي إلى القيروان.

ومن المعلوم أن الإمام مالكاً كان من أشهر من يمثلون عقيدة أهل السلف في عصره، فكان تلاميذه يأخذون عنه مذهبه الفقهي والعقدي معاً.

وعرفت بالقيروان أيضاً فرق من الخوارج مثل الصفرية والإباضية، والمعتزلة، دخلت إلى إفريقية في أواخر القرن الثاني.

وفي القرن الثالث بدأ الاتجاه الشيعي ينتشر في القيروان وما حولها من المدائن والقرى، وتنامى عدد الشيعة بسرعة بحيث استطاعوا تأسيس دولة لهم في إفريقية سنة سبع وتسعين ومائتين (٢٩٧هـ)، وكانت تلك الفرق تتناظر وتتحاور وتتجادل في قضايا مختلفة من الاعتقاد.

ولما ظهر أبو الحسن الأشعري في المشرق وأسس توجهه الجديد في دراسة العقيدة الذي يجمع بين الأدلة النقلية والبراهين العقلية، وجد فيه علماء السنة أسلحتهم القوية التي طالما بحثوا عنها لمواجهة الخصوم بنفس أسلوبهم، وتسارع علماء القيروان إلى الانضمام إلى هذا التوجه الجديد لإثبات وجودهم في الساحة الكلامية التي كاد أن يستبد بها غيرهم.

وقد بدأ التوجه الأشعري في القيروان يدخل في عراك مع الفرق الأخرى وبخاصة أنصار الشيعة العبيديين في أواخر القرن الرابع، واستطاع أن يكسب

المعركة نهائياً في القرن الخامس بإفريقية، وأن يستبد بالساحة الكلامية بعده في الغرب الإسلامي كله.

ويعد أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) من أبرز المتكلمين الأشاعرة الذين كان لهم أثر كبير في إدخال الأشعرية إلى إفريقية وإرساء دعائمها في ربوعها.

فبعد اشتهاره في العراق قصده علماء القيروان للأخذ عنه، شدوا الرحلة إليه لكونه فقيهاً من فقهاء المالكية الكبار، وكونه من النظار الأوائل للأشاعرة.

قال ابن عساكر: وكان القاضي أبو بكر - رضي الله عنه- فارس هذا العلم مباركاً على هذه الأمة، كان يلقب شيخ السنة ولسان الأمة، وكان مالكياً فاضلاً متورعاً ممن لم تحفظ عليه زلة قط، ولا انتسبت إليه نقيصة[1].

وهناك تلميذان لأبي بكر الباقلاني إليهما يرجع الفضل في تأسيس المدرسة الأشعرية بالقيروان هما: أبو عبد الله الأذري، وأبو طاهر البغدادي.

حكى ابن عساكر عن محمد بن عمار الكلاعي أنه قال: إلا أنه - يعني الباقلاني - خلف بعده من تلاميذه جماعة كثيرة تفرقوا في البلاد أكثرهم بالعراق وخراسان ونزل منهم إلى المغرب رجلان: أحدهما أبو عبد الله الأذري رضي الله عنه، وبه انتفع أهل القيروان، وترك بها من تلاميذه مبرزين مشاهير جماعة أدركت أكثرهم، وكان رجلاً ذا علم وأدب ...

والثاني أبو طاهر البغدادي، الناسك الواعظ، كان رجلاً صالحاً شيخاً

---

(١) تبيين كذب المفتري ص١٢٠ .

كبيراً... وكان أبو عمران الفاسي يقول: لو كان علم الكلام طيلساناً ما تطيلس به إلا أبو طاهر البغدادي[1].

ومن المشايخ الذين خدموا الاتجاه الأشعري بإفريقية وثبتوه في ربوعها أواخر القرن الرابع، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ)، وأبو الحسن القابسي (ت ٤٠٣هـ)، وقد كان لهذين العلمين أثر كبير في استمرار التوجه الأشعري واستئثاره بالساحة الكلامية في القرن الخامس، بفضل ما خلفوه من تلاميذ وأتباع.

فابن أبي زيد ناصر أبا الحسن الأشعري ودافع عنه ورد على خصومه، وقد ضمن ذلك الرسالة التي رد بها على علي بن أحمد البغدادي المعتزلي الذي اتهم أبا الحسن الأشعري والإمام مالكاً بما لا يليق بمقامهما، وقد سمى الرسالة: الرد على القدرية ومناقضة رسالة البغدادي المعتزلي[2].

وابن القابسي ألف رسالة في أبي الحسن الأشعري أحسن الثناء عليه وذكر فضله وإمامته[3]، وحين سأله بعض أهل تونس عن أبي الحسن الأشعري وطريقته، أجابهم بقوله: واعلموا أن أبا الحسن الأشعري رضي الله عنه لم يأت من هذا الأمر - يعني الكلام- إلا ما أراد به إيضاح السنن والتثبيت عليها، ودفع الشبه عنها، فهمه من فهمه بفضل الله عليه، وخفي عمن خفي بقسم الله له، وما أبو الحسن الأشعري إلا واحداً من جملة القائمين بنصر

---

(١) تبيين كذب المفتري ١٢٠-١٢١.

(٢) ترتيب المدارك ٦/ ٢٠٨، تبيين كذب المفتري ١٢٣، كتاب العمر ١/ ٦٤٧.

(٣) تبيين كذب المفتري ١٢٢.

الحق، ما سمعنا من أهل الإنصاف من يؤخره عن رتبته تلك، ولا من يؤثر عليه في عصره غيره، ومن بعده من أهل الحق سلكوا سبيله في القيام بأمر الله عز وجل والذب عن دينه حسب اجتهادهم ...[1].

وقد تتلمذ على هذين الرجلين معظم الفقهاء الذين عرفوا في القرن الخامس بإفريقية، مثل أبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عمران الفاسي، وابن العطار وأبي إسحاق التونسي ونظرائهم.

وفي النصف الأول من القرن الخامس لمع اسم أبي عمران الفاسي في علم الكلام على طريقة الأشعري، وقد تتلمذ على ابن القابسي وابن أبي زيد وغيرهما ورحل إلى المشرق ولقي أبا بكر الباقلاني وأخذ عنه ثُمَّ عاد إلى القيروان وجلس للتدريس بها، وأخذ عنه الناس شرقاً وغرباً، قال الدكتور عبد المجيد النجار: *ويمكن أن نعتبر بحق أن القيروان بدأت على يد أبي عمران* الفاسي تشع بالأشعرية على إفريقية والمغرب والأندلس سواء بصفة مباشرة أو بواسطة تلاميذه[2].

وممن تخرج بأبي عمران عبد الحميد بن محمد الشهير بابن الصائغ (ت٤٨٦هـ) وقد أخذ عنه فقه مالك وعقيدة الأشعري بالقيروان ثُمَّ نزل إلى المهدية واستقر بها، وهناك تتلمذ عليه الإمام المازري (ت ٥٣٦هـ) ودرس عليه الفقه والكلام.

---

(١) تبيين كذب المفتري ١٢٢، ١٢٣

(٢) فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب ص ٢٨ .

وقد أصبح المازري أبرز علم يمثل الاتجاه الأشعري في أواخر القرن الخامس وصدر السادس بإفريقية، يقول عبد المجيد النجار: يمكن أن نعتبر المازري ممثلا لمرحلة ظهرت فيها بوادر واضحة لنضج الأشعرية وعطائها بإفريقية، فقد بدت في مؤلفاته خصائص هذا المذهب واضحة المعالم وبانت في آرائه بعمق مقولات الأشعرية في فهم العقيدة[1].

فالاتجاه العقدي الذي ساد - إذن- في القرن الخامس الهجري بإفريقية هو الاتجاه الأشعري، ولم يكن له أي منافس بعد اندثار التيار الاعتزالي والخارجي واختفاء الفكر الشيعي برحيل السلطة التي كانت تدعمه.

وبالرغم من أن الجدل العقدي لم يكن بنفس الحدة التي كان عليها في المشرق، نظراً لغياب العنصر الفلسفي وأهل الأديان الأخرى في هذه المرحلة بإفريقية، فإن المناظرات التي كانت تجري بين الفرق الإسلامية السابقة صنعت أعلاماً في الجدل كانت لهم إسهامات لا تقل أهمية عن إسهامات المشارقة.

وممن عرف بالجدل ومارسه خلال هذه المرحلة:

- محمد بن فتح الشهير بابن شفون (ت ٣١٠هـ) وصفه عياض بقوله: «وكان يذهب مذهب الجدل والمناظرة والذب عن السنة ومذهب أهل المدينة، وهو من مشاهير المتكلمين النظار بالقيروان، وله في هذا الباب كتب حسان وكان ذكياً حاضر الجواب»[2].

---

(١) فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب، ص ٢٨ .
(٢) ترتيب المدارك ٥/ ١٢٦ .

- محمد بن الكلاعي (توفي أوائل القرن الرابع)، «انتحل القول بخلق القرآن، وكان داعية إليه ويجادل من يخالفه من أهل السنة والجماعة ... له تأليف ناقض فيه كتاب سعيد بن الحداد (ت ٣٠٢هـ) الذي ألفه في الرد على من يقول بخلق القرآن»[١].

- العباس بن عيسى الممسي (ت ٣٣٣هـ)، كان «يناظر في الجدل، وفي مذاهب أهل النظر على رسم المتكلمين والفقهاء مناظرة حسنة وكان لسانه مبيناً وقلمه بليغاً مع حصافة العقل وذكاء الفهم، وكان في المناظرة في الفقه أجزل منه في الكلام»[٢].

- إبراهيم بن عبد الله الزبيدي الشهير بالقلانسي (ت ٣٥٩هـ)، «عالم بالكلام والرد على المخالفين، له في ذلك تآليف حسنة، وله كتاب في الإمامة والرد على الرافضة»[٣].

- محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي (ت ٤٨٩هـ)، كان إماماً في أصول الدين، وله في ذلك تواليف حسان مفيدة»[٤].

منها: الريماء إلى مسألة الاستواء، شرح فيه قول الله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: ٥]، وأورد ما قيل فيه من الآراء بنقد وتدقيق[٥].

---

(١) كتاب العمر ١/ ٣٧٩ .
(٢) الديباج المذهب ص٣١٠ .
(٣) الديباج ١٤٤ .
(٤) الصلة ٢/ ٥٧٢ .
(٥) كتاب العمر ١/ ٣٨٦ .

والتجريد لمعاني التمهيد (التمهيد للباقلاني)، والحجة لأهل السنة والتوحيد، رواه القاضي عياض عن تلميذ المرادي: يوسف بن موسى الكلبي الضرير (ت ٥٢٠هـ) [١]، والبيان عن أصول الإيمان، رسالة في الرد على القائلين بقدم الحروف[٢]، ونظم في الحجة على إثبات القدر، ذكره عياض في الغنية [٣].

وقد استمر الجدل العقدي حاداً بين الفرق الإسلامية بالقيروان إلى أواخر القرن الرابع الهجري، واختفى عموماً خلال القرن الخامس لانفراد الاتجاه الأشعري بالساحة العقدية كما انفرد المذهب المالكي بالساحة الفقهية.

المطلب الرابع: الزهد والتصوف:

بدأ ارتباط الفقهاء المالكية بالزهد والتصوف بعد انتشار مذهب إمامهم في بلاد إفريقية، وظل هذا الارتباط يزداد متانةً إلى أن صار الزهد والتصوف جزءاً لا يتجزأ من شخصية الفقيه المالكي.

ويعود الارتباط بين المذهب المالكي والتصوف إلى سببين هامين:

أولهما: اهتمام الفقهاء المالكية بالجهاد وحماية الثغور، وقد دفعهم ذلك إلى إنشاء الرباطات والقصور والأحمية في أماكن الثغور لتحقيق مهمة رصد العدو، وحراسة البلاد وتوفير الجو الملائم للتعبد وقيام الليل والتفقه في

---

(١) الغنية ٢٢٦ .

(٢) كتاب العمر ١/ ٣٨٨ .

(٣) الغنية ص ٢٢٦-٢٢٧ .

الدين، وسرعان ما تحولت هذه الأماكن إلى مراكز للعباد والزهاد، وصارت تستقطب الفقهاء وطلبة العلم لكثرة ما تضمه من العلماء والصلحاء[١].

وأغلب هذه الحصون كان في شمال البلاد على جهة الساحل، وكان المشرفون على تأطيرها من الفقهاء المالكية، وقد ألف بعضهم في تنظيمها كتباً خاصةً[٢].

الثاني: تعرضهم للاضطهاد والمضايقة خلال عهد الأغالبة والعبيديين، والمرحلة الأولى من حكم الصنهاجيين، وقد دفعت هذه المضايقة بكثير من المالكية إلى سلوك سبيل الزهد والتصوف تعبيراً منهم عن عدم رضاهم بالوضع السائد.

وقد بالغ كثير من الفقهاء في سلوك الزهد والتصوف وتخصصوا في هذا المجال، واشتهروا فيه، وصار لهم تلاميذ وأتباع يقتفون أثرهم ويلتمسون بركاتهم، من هؤلاء:

- أبو إسحاق الجبنياني (ت ٣٩٦هـ)، وصفه القاضي عياض بقوله: «أحد أئمة المسلمين، وأبدال أولياء الله الصالحين»[٣].

---

(١) قال أبو إسحاق الجبنياني: «لقد أدركت هذا الساحل، وما منه قرية إلا بها رجل من أهل العلم والقرآن، أو رجل صالح يزار» ترتيب المدارك ٦/ ٢٢٤ .

(٢) منهم: يحيى بن عمر الكندي دفين سوسة (ت ٢٨٩هـ) له كتاب أحمية الحصون. المدارك ٤/ ٣٥٤ . وأبو الفضل يوسف بن مسرور، دفين قصر المنستير (ت ٣٢٥هـ)، «ألف كتاباً في الأحمية وما يجب على سكان القصور أن يعملوا به، فآذاه أهل الحصون لذلك». ترتيب المدارك ٥/ ١٤٤ . وأبو الحسن القابسي (ت ٤٠٣هـ) له رسالة في أحمية الحصون. معالم الإيمان ٣/ ١٣٦ .

(٣) ترتيب المدارك ٦/ ٢٢٢ .

وقد سلك طريق الزهد والتصوف، وانقطع للأخذ عن عباد الأحمية والحصون حتى صار من أبرز المتصوفة العباد بإفريقية في النصف الثاني من القرن الرابع، «وكان العلماء بالقيروان وغيرها والفضلاء يقصدونه ويزورونه ويتبركون برؤيته ويسألونه الدعاء لهم[1].

وقد خلف تلاميذ وأتباعاً كثيرين سلكوا طريقته[2].

- أبو حفص عمر بن مثنى، كانت له عناية بالزهد والتصوف، صحب أبا إسحاق الجبنياني وأعجب بطريقته، قال عنه عياض: «وكان خاصة بأبي إسحاق الجبنياني ينشط إليه ما لا ينشط إلى غيره»[3].

- أبو محمد محرز بن خلف الشهير بمحرز العابد (ت ٤١٣ هـ)، «خاتمة صلحاء علماء إفريقية وزهادها، صالحاً عالماً ورعاً ... وكان متقشفاً فاضلاً زاهداً في الدنيا مجانباً لأهلها مستجاب الدعوة»[4].

- محمد بن عبد الصمد، قال عنه القاضي عياض: كان هذا الرجل من علماء وقته (القرن الخامس) بالقيروان وغلب عليه الزهد، وكان ممن انقطع وأخذ في وعظ الناس وتحذيرهم، وكان يجتمع إليه ويسمع منه حتى حذره صاحب القيروان[5].

---

(١) نفس المصدر ٦/ ٢٣٣.

(٢) من أشهر تلاميذه الذين سلكوا طريقته، وخصوا مناقبه بتأليف خاص، أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعروف باللبيدي. شجرة النور ١٠٩ رقم ٢٨٧.

(٣) ترتيب المدارك ٧/ ١٠٩.

(٤) ترتيب المدارك ٧/ ٢٦٤، وقد ألف أبو طاهر الفارسي مؤلفاً خاصاً في مناقب محرز العابد، وهو مطبوع. كتاب العمر ٢/ ٤٦٠.

(٥) ترتيب المدارك ٨/ ٧٠.

وقد كان هذا الزاهد يزعج السلطان المعز بن باديس، ويقض مضجعه بمواعظه البالغة، وأتباعه الكثيرين، وقد استعار منه يوماً بعض كتبه يريد مطالعتها، فقامت عنده أياماً ثُمَّ ردها إليه وكتب إليها معها: فيما زعمت ملوك الفرس وحكماء السنين والسياسة أن أهل الزهد والوعظ وتأليف العامة وإقامة المجالس أضر الأصناف على الملك وأقبحهم أثراً في الدول فيجب أن يتدارك أمرهم ... ففهم ابن عبد الصمد أنه قصده بذلك فخرج إلى الحج ومعه جماعة من عامة المسلمين[1].

- أبو الحسن علي بن أبي طالب، يعرف بالعابر (ت قبل ٤٣٠هـ)، وهو *أكبر متصوفة القرن الخامس، كان معاصراً لمحرز العابد «وكان يقرأ عليه علوم* التصوف، وله حلقة حافلة يحضرها جماعة من أبناء البلد ومن المهاجرين من طلبة العلم»[2].

وقد اشتهر العابد بكثرة تآليفه في التصوف وتعبير الرؤيا، أشار بن خير الإشبيلي إلى أن مؤلفاته تبلغ أكثر من مائة تأليف[3]. ذكر منها صاحب كتاب العمر: الأبحر السبعة في تعبير الرؤيا، والخطاب، والممتع، والأزهار، والبستان، وموطأ الموطأ[4].

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ٧٠-٧١ .

(٢) كتاب العمر ٢/ ٤٨٥ .

(٣) قال: تواليف أبي الحسن علي بن أبي طالب القروي العابر في العبارة وغيرها وهي زهاء مائة تأليف حدثني بها محمد بن عتاب . . . الفهرست ٤٤٢ .

(٤) كتاب العمر ٢/ ٤٥٩ .

وأشار بن خلدون في «المقدمة» إلى أن تآليف العابر في تعبير الرؤيا هي التي كانت متداولة بين أهل المغرب في عهده (أي عهد بن خلدون)[1].

ومن تلاميذه المشهورين الذين تأثروا به كثيراً في تعبير الرؤيا، محمد بن نعمة الأسدي الشهير بالفروج (ت ٤٨٠هـ) كانت أكثر رواياته عنه.

وصفه ابن بشكوال بقوله: «وكان معتنياً بالعلم عالماً بالعبارة، وجمع فيها كتباً، واستوطن المرية»[2].

ومن القضايا التي وقع الاهتمام بها ومناقشتها في المجال الصوفي: الكرامة وتعبير الرؤيا، فقد كثر الحديث عن الكرامات في القرن أواخر الرابع وغالى بعضهم في إثباتها، مما دفع بابن أبي زيد القيرواني إلى تأليف كتابين في الرد عليهم.

وتعرف الفرقة المغالية في إثبات الكرامات «بالبكرية»، نسبة إلى أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد البكري الذي ألف كتاباً في الكرامات سماه: «كرامات الأولياء المطيعين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان»، أكثر فيه من ذكر الكرامات وغالى في إثباتها[3].

وقد رد عليه ابن أبي زيد بكتابين:

---

(١) المقدمة، فصل في تعبير الرؤيا ص ٤٧٨ .

(٢) الصلة ٢/ ٥٧١ .

(٣) كتاب العمر ٢/ ٦٤٧ .

- الاستظهار في الرد على الفكرية [١].

- كشف التلبيس في الرد على الفكرية أيضاً، وبسبب هذا الرد تعرض ابن أبي زيد لانتقاد شديد من قبل كثير من العلماء، وشنعت عليه المتصوفة، واتهم بإنكار الكرامة، وذاع ذلك عنه في كل الآفاق، بيد أن بعض العلماء عندما أمعنوا النظر في الكتابين، وعرفوا مقصد ابن أبي زيد تراجعوا عن الإنكار عليه واعتذروا له[٢].

أمَّا تعبير الرؤيا فقد تخصص فيه أعلام ألفوا فيه مؤلفات خاصة وصار لهم تلاميذ وأتباع، من أشهرهم في القرن الخامس أبو الحسن علي بن أبي طالب الذي ألف في تعبير الرؤيا كتباً كثيرةً، وكون أتباعاً في أنحاء البلاد[٣].

وقد اشتهرت كتبه في تعبير الرؤيا وانتشرت في المغرب، وظلت متداولة عبر العصور[٤].

***

---

(١) هكذا ورد اسم هذه الفرقة (الفكرية) في بعض كتب التراجم، وأشار محقق كتاب العمر إلى أن الصواب أن تسمى البكرية نسبة إلى مؤسسها أبي القاسم البكري. كتاب العمر ٢/ ٦٤٧ .

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٦/ ٢١٩-٢٢٠ .

(٣) انظر: بعض كتبه في كتاب العمر ٢/ ٤٥٩ .

(٤) جاء في مقدمة ابن خلدون، في فصل تعبير الرؤيا: ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا، والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد-القرن الثامن - كتب بن أبي طالب من علماء القيروان كالممتع وغيره. . . ص ٤٧٨ .

الفصل الثالث
ترجمة أبي الحسن اللخمي

المبحث الأول
نشأته وشيوخه

المطلب الأول : اسمه ونسبه :

هو أبو الحسن علي بن محمد الربعي[1] اللخمي[2]، القيرواني أصلاً، السفاقصي موطناً، وقد اشتهر في كتب الفقه باللخمي، وبأبي الحسن اللخمي، ويلاحظ أن المصادر الفقهية المتقدمة غالباً ما تورد اللخمي مقروناً بكنيته، نجد ذلك واضحاً في مؤلفات القرن السادس مثل مؤلفات أبي عبد الله المازري، وابن بشير، وابن رشد الجد وغيرهم، في حين أن المصادر التي جاءت بعد هذه الفترة غالباً ما تقتصر على لفظ اللخمي دون ذكر أبي الحسن .

---

(١) بفتح الراء والباء نسبة إلى ربيعة (قبيلة من قبائل العرب)، نور البصر ص٢٠٩ (ط حجرية).

(٢) لفظ اللخمي منسوب إلى لخم : قبيلة من العرب قدموا من اليمن إلى بيت المقدس ونزلوا بالمكان الذي ولد فيه عيسى عليه السلام، والعامة تسميه بيت لحم بالحاء المهملة، وصوابه بيت لخم بالخاء المعجمة، الأعلام للزركلي ٥/ ٢٤١ .
وقد عرف بهذه النسبة (اللخمي) كثير من الأعلام شرقاً وغرباً، وممن عرف بها من سكان سفاقص، أبو الحسن اللخمي صاحب الترجمة (ت٤٧٨هـ) وأبو بكر الفريابي (ت٥٥٥هـ)، وأبو القاسم بن محمد بن علي (ت٨٤١هـ). انظر : تاريخ سفاقص، لأبي بكر عبد الكافي ١/ ٢٤ .

وقد سمي أبو الحسن باللخمي نسبة إلى جده من أمه فهو ابن بنت اللخمي، ولم تذكر مصادر ترجمته أي شيء عن جده هذا، كما لم تشر إلى شيء يتعلق بأبيه محمد الربعي.

ويشترك مع أبي الحسن اللخمي في الاسم والكنية والنسبة علمان مالكيان أحدهما مغربي من سبتة هو أبو الحسن علي بن عبد الله اللخمي المتيطي، صاحب كتاب «النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام» الشهير بـ«المتيطية»، توفي سنة (٥٧٠هـ)[1].

وقد خلط بينهما بروكلمان وجعلهما شخصاً واحداً[2].

والثاني دمشقي هو أبو الحسن علي بن محمد الربعي، يعرف بابن أبي *الهول صاحب كتاب «فضائل الشام ودمشق» (ت ٤٤٤هـ)*

وقد خلط الزركلي بينه وبين أبي الحسن اللخمي صاحب الترجمة، ونسب الكتاب المذكور إليهما معا.

قال في ترجمة ابن أبي الهول: «فصنف فضائل الشام ودمشق»[3]

وقال في ترجمة أبي الحسن اللخمي: وله فضائل الشام مخطوط بدار الكتب المصرية ألفه سنة ٤٣٥هـ[4].

---

(١) انظر ترجمته في شجرة النور ١٦٣ رقم ٥٠٢ .
(٢) تاريخ بروكلمان الأصل ١/ ٣٨٣، الملحق ١/ ٦٦١، انظر: كتاب العمر ٢/ ٦٨٣
(٣) الأعلام ٥/ ١٤٦ .
(٤) الأعلام ٤/ ٣٢٨ .

وقد تبعه في هذا الخلط أيضاً محمد محفوظ صاحب كتاب «تراجم المؤلفين التونسيين»، قال في ترجمة أبي الحسن اللخمي: «ومن كتبه أيضاً فضائل الشام ألفه سنة ٤٣٥ موجود بدار الكتب المصرية»[١]

والصحيح أن أبا الحسن اللخمي لم يؤلف كتاباً في فضائل الشام إذ لم يثبت عنه دخول هذا البلد، ولم يكن له اهتمام بالتاريخ.

المطلب الثاني: ميلاده ونشأته:

لم أعثر فيما اطلعت عليه من مصادر ترجمة أبي الحسن عن تاريخ ولادته، وقد يستفاد من قول عياض: «وبقي بعد أصحابه فحاز رئاسة إفريقية جملة»[٢]، أن أبا الحسن عمر طويلاً، وتأخر عن أقرانه وفاةً.

وبقياس هذا العمر المديد بتاريخ وفاته المضبوط بسنة ثمان وسبعين وأربعمائة (ت ٤٧٨هـ) يكون قد ولد في مستهل القرن الخامس الهجري.

وإذا كان زمن ولادته غير معروف بالتحديد، فإن مكانها معلوم هو القيروان.

فقد أجمع مترجموه على أنه قيرواني الأصل والنشأة، إلا ما حكاه أبو عبد الله العبدري في رحلته عن أبي عبد الرحمن الدباغ حيث نص على أنه لقي الدباغ بالقيروان وأخذ عنه مؤلفه المسمى «معالم الإيمان وروضات الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان» مناولة، قال: وسألته لم

(١) ترجم المؤلفين التونسيين ٤/ ٢١٩ .

(٢) ترتيب المدارك ٨/ ١٠٩ .

لم تذكر فيه أبا الحسن اللخمي- فقال لي: لم يثبت عندي أنه دخل القيروان، وسألته عن تاريخ وفاته، فقال لي: توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وذكر لي أنه قرأ ذلك في حجر عند رأسه بمدينة سفاقص[١].

وهذه الحكاية لا يلتفت إليها، لأن الدباغ خصص لأبي الحسن اللخمي ترجمة ضافية في كتابه المذكور، ونص على أنه من أهل القيروان[٢].

لقد نشأ اللخمي بالقيروان في عهد السلطان المعز بن باديس الصنهاجي الذي تولى الحكم بإفريقية سنة ٤٠٦هـ، ولا يعرف شيء عن نشأته ولا عن الأسرة التي ترعرع فيها.

ويظهر أن أبا الحسن قد بدت عليه ملامح النبوغ ومخايل النباهة في وقت مبكر من حياته العلمية، ومما يدل على ذلك أن شيخه أبا القاسم السيوري «كان يسيء الرأي فيه، يكثر الطعن عليه»[٣].

ولم يكن يسيء الرأي فيه بسبب انحراف ظهر في سلوكه الأخلاقي إذ يجمع مترجموه على أنه كان ذا خلق رفيع[٤] وإنما كان ذلك بسبب تحرره في الإفتاء،[٥] وميله أحياناً إلى الخروج عن مذهب الأشعري وكلام الأصوليين[٦].

---

(١) رحلة العبدري ص٦٧ .

(٢) قال: أصله من القيروان ونزل صفاقس، معالم الإيمان ٣/ ١٩٩ .

(٣) ترتيب المدارك ٨/ ١٠٩، الديباج ٢/ ١٠٤ .

(٤) قال فيه عياض: كان فقيهاً فاضلاً ديناً. ترتيب المدارك ٨/ ١٠٩ .

(٥) ترتيب المدارك ٨/ ١٠٩ .

(٦) تراجم المؤلفين التونسيين ٤/ ٢١٤ .

فانزعاج السيوري - إذن- من تلميذه أبي الحسن راجع إلى ما لاحظه عليه من الجرأة على الإفتاء وعدم التقيد دائماً بمقررات المتكلمين والأصوليين[1] . معنى ذلك أن السيوري لم يكن مرتاحاً لهذا التحرر المبكر لتلميذه أبي الحسن .

وتتميز البيئة العلمية التي نشأ فيها أبو الحسن بانخفاض درجة المناظرة والنقاش الذي كان سائداً بين المذاهب الفقهية والفرق الكلامية خلال القرن الرابع وما قبله .

فعلى مستوى الكلام آل الصراع بين الفرق إلى ظهور المذهب الأشعري واستئثاره بالساحة الكلامية .

وفي مجال الفقه صارت الغلبة للمذهب المالكي ، وفضت حلق المخالفين ، خصوصاً بعدما تبنى المعز بن باديس - أمير الوقت- المذهب المالكي وأعلنه مذهباً رسمياً للدولة سنة سبع وأربعمائة .

كما تميزت أيضاً بظهور أعلام كبار في المذهب المالكي كان لهم أثر كبير في تكوين شخصية أبي الحسن الفقهية ، وقد ساعد على ظهورهم استقرار المذهب ، وانفراده بالساحة الفقهية ، وأذكر من هؤلاء ، أبا بكر بن

(١) ومما يؤكد عدم تقيد اللخمي بكلام الأصوليين المتكلمين دائماً ، ما أورده الونشريسي أن اللخمي ناقشه بعض تلاميذه يوماً في مسألة تسبيح الجمادات ، وذكروا له قول الباقلاني فيها ، فأنكره غاية الإنكار ، وقال لهم : خلوا ما أنتم عليه من كلام الأصوليين ، قال تلميذه المازري : وكان رحمه الله يستثقل كلام الأصوليين . المعيار ١٢/ ٣٤٥ .

عبد الرحمن، وأبا عمران الفاسي، وابن محرز، وأبا إسحاق التونسي، وأبا القاسم السيوري، وعبد المنعم بن بنت خلدون، وأبا حفص العطار، الذين كانت أعمالهم العلمية بمثابة الجذور القريبة لطريقة أبي الحسن في دراسة المذهب.

المطلب الثالث: شيوخه:

درس أبو الحسن اللخمي بالقيروان: موضع نشأته، وبها استكمل تحصيله العلمي على يد كبار شيوخها آنذاك، ولم يرد عنه ما يدل على خروجه من القيروان ورحلته إلى بلاد المشرق لطلب العلم كما كان دأب كثير من طلاب العلم الإفريقيين حينذاك بعد أخذهم عن علمائها، لذلك لم يعرف له شيوخ من غير القرويين.

ولا شَكَّ أنَّ بقاءه بالقيروان طيلة مدة الطلب قد أتاح له الالتقاء بكثير من شيوخها والأخذ عنهم، غير أن كتب التراجم لم تصرح سوى بأسماء عدد قليل منهم، وهم:

أ- أبو الطيب عبد المنعم بن إبراهيم الكندي الشهير بابن بنت خلدون، من فقهاء القرويين النظار، وصفه القاضي عياض بقوله: «من نبلاء هذه الطبقة ومتقنيها، وكان له علم بالأصول وحذق بالفقه والنظر»[1]. وكان له علم كبير باختلاف الفقهاء[2].

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ٦٦.

(٢) معالم الإيمان ٣/ ١٨٤.

أخذ الفقه عن أبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عمران الفاسي، وقرأ القرآن عن أبي عبد الله بن سفيان المقرئ، وله رحلة إلى المشرق التقى خلالها بعدة شيوخ، وبعد عودته جلس للتدريس بالقيروان.

ومن تلاميذه أبو الحسن اللخمي، وأبو إسحاق بن منصور القفصي[1]، وعبد الحق بن محمد بن هارون التميمي صاحب كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة (ت ٤٦٦هـ)[2] وأبو عبد الله محمد بن سعدون، صاحب كتاب إكمال تعليق التونسي على المدونة، (ت ٤٨٦هـ)[3].

وقد نص ابن ناجي على أنَّ ابن الطيب له تآليف عدة في فنون من العلم، إلا أنه مات قبل أن يهذبها[4].

ومن مصنفاته الفقهية: «التعليق على المدونة»، وصفه عياض بأنه تعليق مفيد[5].

وقد توفي أبو الطيب سنة خمس وثلاثين وأربعمائة (٤٣٥هـ)[6].

ب- أبو القاسم عبد الرحمن بن محرز القيرواني، أحد كبار الفقهاء النظار، تفقه في بلده بأبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عمران الفاسي،

---

(١) ترجمته في ترتيب المدارك ٨/ ٦٨/ ٦٩.

(٢) ترجمته في المدارك ٨/ ٧١-٧٤.

(٣) ترجمته في معالم الإيمان ٣/ ١٩٨.

(٤) معالم الإيمان ٣/ ١٨٤.

(٥) ترتيب المدارك ٨/ ٦٦.

(٦) ترجمته في المدارك ٨/ ٦٦، ومعالم الإيمان ٣/ ١٨٤، وشجرة النور ١٠٧ رقم ٢٨٠.

وأبي حفص عمر بن أبي الطيب الشهير بالعطار (ق ٤٢٨هـ) وأبي الحسن القابسي (٤٠٣ هـ) ثُمَّ رحل إلى المشرق وجال في عدة بلدان ولقي شيوخاً في مختلف العلوم، وسمع منهم، وبعد عودته تفرغ للتدريس والتأليف بالقيروان.

وقد تفقه به جماعة من الإفريقيين من أشهرهم، أبو الحسن اللخمي، وعبد الحميد بن الصائغ[١].

كان ابن محرز من الفقهاء الذين برزوا في المناظرة ومعرفة اختلاف الفقهاء قال عنه الدباغ: وكان مليح المناظرة حتى قال ابن علاق المصري: ما رأيت من أهل المغرب من يحسن طريق المناظرة مثل أبي القاسم بن محرز، وكان أبو الطاهر البكري يفضله على جميع من بالقيروان في طريق المناظرة والكلام على مسائل الخلاف[٢].

وبالإضافة إلى تمكنه في الفقه والمناظرة والخلاف كان له علم بالحديث ورجاله، فقد وصفه محمد مخلوف ب «الفقيه النبيل، المحدث العالم الجليل»[٣].

وقال عنه الدباغ: كانت له العناية بالحديث ورجاله، رحل إلى المشرق ولقي المشايخ الجلة وأخذ عنهم الحديث[٤].

---

(١) انظر ترجمة ابن الصائغ في معالم الإيمان ٣/ ٢٠٠-٢٠١.

(٢) معالم الإيمان ٣/ ١٨٥.

(٣) شجرة النور ١١٠ رقم ٢٨٨.

(٤) معالم الإيمان ٣/ ١٨٥.

وقد خلف بن محرز مؤلفات عدة وصفت بأنها جادة ومفيدة، قال ابن ناجي، وله تواليف عدة كلها نبيلة[1]، وقال عياض: له تصانيف حسنة[2].

والمذكور من هذه المصنفات بأسمائها في مجال الفقه كتابان:

- التبصرة، وهو تعليق على مدونة سحنون[3].

- القصد والإيجاز، وهو كتاب كبير في الفقه[4].

توفي رحمه الله في حدود سنة خمسين وأربعمائة (٤٥٠هـ)[5].

ج- أبو إسحاق التونسي: هو أبو إسحاق إبراهيم بن حسن، ويرد في كتب الفقه باسم التونسي، ولد ونشأ بالقيروان وتعلم بها على أشياخها آنذاك أمثال أبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عمران الفاسي وطبقتها[6].

ولما أنهى مرحلة التحصيل والأخذ عن الأشياخ وآنس من نفسه القدرة

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٨٥ .

(٢) ترتيب المدارك ٨/ ٦٨ .

(٣) جاء في التعليق على كتاب العمر: ذكر أحد المعلقين على نسخة من المدونة محفوظة بخزانة القرويين بفاس في آخر كتاب النكاح ما يلي: وما كان من حاشية عليها علامة (ز ص) فهي منقولة من تبصرة الشيخ أبي القاسم بن محرز. وقد استوعبتها نقلاً في حواشي كتابي هذا. كتاب العمر ٢/ ٦٧٥ .

(٤) ترتيب المدارك ٨/ ٦٨ .

(٥) ترجمته في ترتيب المدارك ٨/ ٦٨، ومعالم الإيمان ٣/ ١٨٥، والديباج المذهب ٢/ ١٥٣، وشجرة النور ١١٠ رقم ٢٨٨، وتراجم المؤلفين التونسيين ٤/ ٢٥٣، وكتاب العمر ٢/ ٦٧٤ .

(٦) معالم الإيمان ٣/ ١٧٧ .

على العطاء العلمي جلس للتدريس بالقيروان التي لم يكن يدرس بها إلا الفحول، قال عياض: «وكان مدرساً بالقيروان، مشاوراً فيها قبل الفتنة»[1] أي قبل الفتنة التي أحدثها أعراب بني هلال، وقد تحدثت عنها في موضع سابق[2].

وكان أبو إسحاق «فقيهاً صالحاً موصوفاً بالفهم مقدماً في أجوبته، من أهل النسك والإرادة ومحبة الصالحين، مستجاب الدعاء، وله براهين ومناقب حسنة، قرأ القراءات، وأجاز بها، *وقرأ الفقه البارع والنحو*...

وكان متكلماً في أصول الدين يميل إلى النظر عارفاً بالحديث ووجوهه مشهورا بذلك ... وكان أبو حفص العطار يقول: إذا وافقني أبو إسحاق التونسي. وعبد الواحد الكفيف، ما أبا لي بمن خالفني ...»[3].

وقد تصدى للإفتاء إلى جانب التدريس، وكانت تأتيه الأسئلة من آفاق بعيدة فيجيب عنها بكل صراحة وصدق، دونما التفات إلى اعتبارات سياسية وغيرها. وقد ورد عليه سؤال يوما من مدينة باغية بالمغرب الأوسط يسأل صاحبه عن قضية في الطلاق والمراجعة، وذكر في السؤال أن ولي النكاح كان من الفرقة المعروفة بإفريقية بالمشارقة - وهم الشيعة وأتباع بني عبيد - فأجاب أبو إسحاق: إن هذه الفرقة على قسمين، أحدهما كافر مباح الدم، والآخر - وهم القائلون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة - لا يلزمهم التكفير ولا يبطل نكاحهم.

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ٥٩ .

(٢) ص: ٣٨ .

(٣) معالم الإيمان ٣/ ١٧٧ .

وقد صادف صدور هذه الفتوى وقت قيام الإفريقيين على متبعي المذهب الشيعي العبيدي ومحاربة آرائهم، فأنكر عليه فقهاء القيروان ذلك، وألبوا عليه العامة وجرت له محنة عظيمة[1] بسبب ذلك[2].

وهذه الفتوى-بغض النظر عن مدى صوابها أو خطئها- تعكس الجرأة القوية التي كان يتمتع بها أبو إسحاق في الإفتاء، وتدلُّ على أنَّ النَّاس كانت لهم ثقة بعلمه، ويأتون إليه من بعيد يسألونه عن أمور دينهم، وهذا ما جعل عبد الجليل الديباجي يقول فيه:

حاز الشرفين من علم ومن عمل   وقلما يتأتى العلم والعمل[3]

ومن مؤلفات الشيخ أبي إسحاق، تعليق على كتاب الموازية، وتعليق على المدونة، وهما من الكتب المعتمدة، نقل منها كثير من الفقهاء في مصنفاتهم، وفي «المعيار» نقول كثيرة عنهما، وفتاوي متعددة عن أبي إسحاق.

وقد وصف عياض هذين الكتابين بقوله: وله شروح حسنة، وتعاليق مستعملة متنافس فيها على كتاب ابن المواز، وعلى كتب المدونة[4]. توفي رحمه الله سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (٤٤٣هـ).

---

(١) وقد تحدثت عن محنة أبي إسحاق بتفصيل ضمن الأحداث السياسية ص: ٤٧-٤٨ .

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٨/ ٥٩-٦٢ ومعالم الإيمان ٣/ ١٧٧-١٧٩، وكتاب العمر ٢/ ٦٦٧-٦٦٨ .

(٣) معالم الإيمان ٣/ ١٧٧ .

(٤) ترتيب المدارك ٨/ ٥٨ .

د- أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث الشهير بالسيوري، وهو أشهر شيوخ أبي الحسن اللخمي، لازمه أكثر مما لازم غيره.

ويعد السيوري «آخر طبقته من علماء إفريقية، وخاتمة أئمة القيروان»[1] تفقه بأبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عمران الفاسي وغيرهما، وأخذ القراءات عن أبي عبد الله محمد بن سفيان المقرئ، ودرس الكلام والأصول على أبي عبد الله الأزدي تلميذ الباقلاني، وأحد شيوخ الأشاعرة بالقيروان في القرن الخامس الهجري، وكانت له عناية أيضاً بالحديث واللغة.

وقد برز السيوري في الفقه واشتهر فيه أكثر من اشتهاره في غيره، وهو في المذهب المالكي أحد أئمته النظار ومشايخه الكبار، عرفوا بأفريقية في صدر القرن الخامس الهجري، فقد «كان آية في الدرس والصبر عليه، ذكر أنه كان يحفظ دواوين المذهب الحفظ الجيد، ويحفظ غيرها من أمهات كتب الخلاف، حتى إنه كان يذكر له القول لبعض العلماء فيقول: أين وقع هذا؟ ليس هو في كتاب كذا، ولا في كتاب كذا، ويعدد أكثر الدواوين المستعملة من كتب المذهب والمخالفين والجامعين، فكان في ذلك آية، وكان نظاراً»[2].

وكانت له خبرة واسعة بأصول المذاهب الفقهية وفروعها، وكان يخرج أحياناً عن المذهب المالكي حين يترجح لديه قول المخالف، ويخالف الإمام مالكاً عندما يرى الصواب مع غيره[3].

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ٦٥ .

(٢) ترتيب المدارك ٨/ ٦٥ .

(٣) من أشهر المسائل التي خالف فيها الإمام مالكاً:

أ- جنسية القمح والشعير، فالإمام مالك يرى أنهما جنس واحد، وأبو القاسم =

ولا شك أنَّ هذه المخالفات لمؤسس المذهب، وهذا التحرر في التعامل مع أصوله وفروعه، كان لهما أثر كبير في صياغة العقلية النقدية لدى أبي الحسن اللخمي.

وقد جلس السيوري للتدريس مدة طويلة، وانتفع به خلق كثير، وأخذ عنه أعلام عدة، من أشهرهم: عبد الحميد بن الصائغ (ت ٤٨٦هـ)، وأبو الحسن اللخمي (٤٧٨هـ) وعبد الحق الصقلي (ت ٤٦٦هـ) وأبو عبد الله محمد ابن سعدون (ت ٤٨٦هـ) وأبو علي حسان البربري المهدوي، وقد أخذ عن السيوري وعن تلميذه عبد الحميد بن الصائغ، وكان الإمام المازري يجله ويعبر عنه بصاحبنا[1].

ومن مؤلفات أبي القاسم السيوري الفقهية:

- التعليق على نكت المدونة. أخذه عنه تلاميذه، وقد أشار ابن ناجي إلى أن السيوري لم يؤلف هذا الكتاب، «وإنما أصحابه قيدوا عنه ذلك، مما

= السيوري يعتبرهما جنسين مختلفين، وقد رمى يوماً لقطة لقمة من شعير وأخرى من قمح، فشمت اللقمة الأولى وانصرفت عنها، ثم شمت الأخرى فأكلتها ولم تعد إلى الأخرى، فقال: هذا الحيوان البهيمي فرق بينهما!

ب- التدمية التي لم يذكر فيها أثر دم أو قيء، يقول بها الإمام مالك، وقال السيوري لا يعول عليها.

ج- خيار المجلس، لم يقل به الإمام مالك، وقال به السيوري لترجح أدلة الأخذ به عنده.

وقد حلف بالمشي إلى مكة أن لا يفتي بقول مالك في هذه المسائل الثلاث. انظر: معالم الإيمان ٣/ ١٨٣-١٨٤ والفكر السامي ٢/ ٢١٢.

(١) انظر ترجمة حسان البربري في شجرة النور ١٢٦ رقم ٣٦٨.

يسمعونه منه في درسه، لقول المازري في تعليقه على المدونة: لم يؤلف السيوري إلا كراسة، وليس له تأليف »[1].

- فتاوى مجموعة تنسب إليه، ينقل عنها كثير من المتأخرين[2].

والسيوري من العلماء الذين لم يفارقوا القيروان بعد تخريبها من قبل أعراب بني هلال سنة (٤٤٩هـ)، وقد بقي بها، وطال بها عمره إلى أن أدركته الوفاة سنة ستين وأربعمائة (٤٦٠هـ)[3].

ويلاحظ أن الشيوخ الذين تخرج بهم أبو الحسن اللخمي، كانوا من الأئمة النظار، وكانت لهم دراية باختلاف الفقهاء، ومعرفة واسعة بأصول المذهب وفروعه، وكلهم ألفوا تعاليق على مدونة سحنون، درسوا فيها فروع المذهب بطريقة تقوم على التصحيح والتمحيص، وكانت لهم عناية بالحديث.

وهذه المميزات كان لها تأثير واضح على أبي الحسن اللخمي، وهي بارزة بجلاء في منهجه الفقهي.

خروجه من القيروان إلى صفاقس:

بعدما أنهى أبو الحسن دراسته بالقيروان، وأخذ ينشر علمه بالقيروان، جاءت فتنة الأعراب التي أربكت الحياة السياسية والعلمية والاجتماعية

---

(١) معالم الإيمان ٣/ ١٨٢-١٨٣.

(٢) كتاب العمر ٢/ ٦٨٠ (الأصل والتعليق).

(٣) ترجمته في ترتيب المدارك ٨/ ٦٥-٦٦ ومعالم الإيمان ٣/ ١٨١-١٨٤، والديباج المذهب ٢٥٩، وشجرة النور ١١٦ رقم ٣٢٣، ونزهة الأنظار ٢/ ٢٧٨، والفكر السامي ٢/ ٢١٢.

بإفريقية، ونتج عنها خراب شامل للقيروان سنة تسع وأربعين وأربعمائة (٤٤٩هـ).

وبعد خراب القيروان اضطر أبو الحسن -كغيره من الفقهاء- إلى مغادرتها، واختار التوجه إلى مدينة صفاقس[١] ليستقر بها، ويستأنف نشاطه العلمي بها.

ويظهر أن أهل صفاقس كان قد وصلتهم أخبار طيبة عن أبي الحسن، وعرفوا عنه الشيء الكثير، لذلك رحبوا به وأحسنوا استقباله، وأنزلوه عندهم منزلة العلماء الأجلاء، إذ بمجرد نزوله بين ظهرانيهم خصصوا له مسجداً ليدرس فيه وينشر به علمه[٢]. وقد ظل هذا المسجد منسوباً إليه، وبقي إلى الآن يعرف بجامع الشيخ اللخمي[٣].

وقد وجد أبو الحسن في صفاقس جواً مناسباً لممارسة رسالته العلمية التي تتلخص في ثلاث مهام أساسية: التدريس، والإفتاء، والتأليف.

* * *

(١) سبق الحديث مفصلا عن هذه المدينة في ص: ٤٤.

(٢) وقد ذكر صاحب كتاب "تراجم المؤلفين التونسيين" أن هذا المسجد أسس لأبي الحسن بعد مقدمه إلى صفاقس. ج٤/ ٢١٥، وذكر أبو بكر عبد الكافي أن أبا الحسن هو الذي أسسه. تاريخ صفاقس ١/ ١٤١.

(٣) قال أبو بكر عبد الكافي في مسجد اللخمي: هو من المساجد الأثرية العريقة في حياة صفاقس العلمية، لأنه كان خلال القرن الخامس الهجري مدرسة علمية دينية يتزعمها إمام جهبذ (يعني أبا الحسن اللخمي) من أعظم أئمة المذهب المالكي، وهو مؤسسه، وأول من تصدر به للتدريس. تاريخ صفاقس ١/ ١٤١ =

المبحث الثاني
المهام العلمية التي اشتغل بها

المطلب الأول: التدريس:

جلس أبو الحسن للتدريس في المجلس المخصص له بعد نزوله بصفاقس مباشرة، وتحلق حوله عدد كبير من الطلبة الصفاقسيين وغيرهم، وكانت دروسه تتمحور أساساً حول الحديث والفقه.

ففي مجال الحديث كان يدرس لطلابه صحيح الإمام البخاري الذي أخذه عن شيوخه القرويين. وقد أشرت سابقاً إلى أن صحيح البخاري دخل في وقت متأخر إلى القيروان على يد أبي الحسن القابسي (ت ٤٠٣هـ) وعنه أخذه بعض شيوخ أبي الحسن اللخمي.

وقد كان للخمي دراية واسعة بالحديث وفقهه، يظهر ذلك جلياً في تبصرته، فهو حين يذكر الحديث غالباً ما يشير إلى رواياته المختلفة، وينص

= وكما يعرف هذا المسجد بمسجد اللخمي يعرف أيضا بمسجد الدريبة لوقوعه أمام دار الجلولي التي كانت في أول هذا القرن مقر والي المدينة، والدريبة عند سكان صفاقس تطلق على هذا المقر.
ويقع مسجد اللخمي في طرف المدينة من الناحية الشرقية في الحومة المعروفة قديماً بحومة الرقة أو بربع الرقة، وقد تعرض للهدم خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أعيد بناؤه في هندسة جديدة ولون معماري جديد بها عدة نوافذ بديعة، واحتوت بيت صلاته على نحو عشرين أسطوانة... وبركنه الجنوبي الشرقي مئذنة عصرية جميلة.
تاريخ صفاقس ١/ ١٤٢، وتراجم المؤلفين التونسيين ٤/ ٢١٥.

على من خرجه، ويبين درجته أحياناً، ويذكر الزيادات التي انفرد بها بعض المحدثين، ويبرز محل الدلالة فيه، ويبين العبارة التي سببت اختلاف الفقهاء، ويورد فهوم العلماء له، ويرجح ما يراه صواباً منها.

وبهذه الطريقة كان يدرس لطلابه الحديث، ويشرح لهم صحيح البخاري.

وفي مجال الفقه يبدو أن أبا الحسن كان يركز على المذهب المالكي، فكتابه التبصرة الذي أخذ عنه-وهو الكتاب الوحيد الذي عرف له في الفقه-لا يتضمن من قضايا الخلاف العالي إلا مسائل قليلةً جداً، تأتي عرضاً في بعض السياقات العامة.

وقد تميزت دروسه في الفقه بالجمع بين فروع المذهب وأصوله، ومناقشة الروايات والأقوال وتوجيهها وتعليلها، وبيان أسباب الخلاف فيها، وتقرير ما هو راجح منها، وهي طريقة ممتعة تدفع عن المستمع السآمة والملل، وقد استفاد بعض طلابه منها في التدريس حينما أصبحوا فقهاء مدرسين، كأبي عبد الله المازري، وإبراهيم بن بشير، وأبي يحيى بن الضابط.

ومما زاد دروس أبي الحسن متعة وجاذبية أنه كان يتحاور مع طلابه، ويفتح لهم باب المناقشة وإبداء الرأي، ويصغي إليهم، وينزل على آرائهم أحياناً إذا ظهر له وجه صوابها.

وقد نقل عن أبي عبد الله المازري كثير من المناقشات والمحاورات التي كانت تجري بينه وبين شيخه اللخمي في مجلس الدرس أذكر منها ما يلي:

- جاء في المعيار عن أبي عبد الله المازري قال: وقد كلمت اللخمي لما خاطبني في هذه المسألة[1]، وسألني عن وجهها، فأجبته بما تقدم، وجرى بيننا كلام طويل[2].

- وفي شرح التلقين، قال المازري: ولقد رأيت الشيخ أبا الحسن اللخمي صاحب التبصرة - رحمه الله - لما ذكرت له هذا القول استبعد أن يكون قولاً، فحكيت له عن المذهب فسألني: أين رأيته؟ فقلت له: في الزاهي لابن شعبان، وكلفني أن وقفته عليه فتعجب منه[3].

- وفي المعيار أن الإمام المازري سئل عن تسبيح الجمادات، فأجاب بأن ما عليه أهل الأصول أنها لا تسبح، ثُمَّ قال: وقد ذكرت شيئاً من ذلك عند اللخمي، وقلت: إن القاضي ابن الطيب (يعني الباقلاني) يمنع من هذا، فقال لي: قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، يدلُّ على أن الجمادات كلها تسبح، وأنكر قول القاضي غاية الإنكار، وقال لي: خلوا ما أنتم عليه من كلام الأصوليين ... فقال له عبد الجليل بن مفوز: فهذه الحصا تسبح ؟ فقال: نعم، تسبح بالغيظ، فسكت عبد الجليل لما رأينا من غضبه[4].

---

(١) وهي إذا ماتت الزوجة البكر قبل الدخول بها، فلما طلب الأب الصداق طلب الزوج الميراث من القدر الذي تتجهز به.

(٢) المعيار ٣/ ٣٢٥.

(٣) نقلا عن كتاب فتاوى المازري للطاهر المعموري ص٢٩.

(٤) المعيار المعرب ١٢/ ٣٤٥.

- وفي شرح التلقين، ناقش المازري شيخه اللخمي مناقشة طويلة في مسألة أصولية أوردها في كتابه التبصرة ثُمَّ قال: ولقد كنت خاطبته على مواضع منها رأيته انحرف فيها عن أغراض أهلها فربما أظهر قبولاً لذلك وربما استثقله[1].

وورد عن حسن بن بلقاسم بن باديس قال: وقع كلام بين يدي الإمام أبي الحسن اللخمي في حكم السفر إلى الحج مع فساد الطريق، هل الأولى تركه احتياطاً على النفس والاستسلام في التوجه إلى الله، ومال اللخمي إلى اختيار الترك، قال ابن باديس: وكان في المجلس رجل واعظ فقال: يا فقيه، تسمع ما أقول؟ فقال نعم، فأنشده:

إن كان سفك دمي أقصى مرادكم

فما غلت نظرة منكم بسفك دمي

فاستحسن كل من حضر منزعه وانفصل المجلس على أن الأولى تحمل الخطر في التوجه، والإعراض عن العوائق[2].

فهذه الأحداث وغيرها تدل على أن مجلس أبي الحسن كان فيه تبادل للرأي ومناقشة بينه وبين مستمعيه، وأن اللخمي كان يقبل رأي طلابه وجلسائه ويتنازل عن رأيه.

---

(١) شرح التلقين ٣/ ١١٤٥ .

(٢) نيل الابتهاج ص١٠٤ ، وقد استحسن اللخمي أيضا قول الواعظ ، وأعجب بإنشاده ، المعيار ١/ ٤٣٥ .

المطلب الثاني: الإفتاء:

لقد عرف أبو الحسن الخمي بالإفتاء منذ وقت مبكر، أيام كان بالقيروان، واشتهرت فتاويه وطارت في الآفاق قبل أن ينتقل إلى مدينة صفاقس.

وكانت له شجاعة نادرة على الإفتاء، لا يبالي بمن خالفه أيا كان، ولم يكن يقلد أحداً في فتواه إلا إذا ظهر له وجه صواب قوله، وترجح لديه مستنده.

وهذه الخصيصة هي التي كانت وراء تلك الشهرة التي حظيت بها فتاويه في كل أنحاء المغرب، ولعلها كانت السبب في إنكار شيخه أبي القاسم السيوري عليه، وإساءة رأيه فيه، وهذا ما يفيده قول عياض في ترجمة أبي الحسن: وظهر في أيامه وطارت فتاويه، وكان السيوري يسيء الرأي فيه، يكثر الطعن عليه[1].

والفتاوى المأثورة عن أبي الحسن كثيرة وردت في كل الأبواب الفقهية، وقد احتفظ الإمام أبو محمد بن القاسم البرزلي (ت ٨٤٤هـ) في نوازله المسماة: «جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا بالمفتين والحكام» وأبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي (ت ٩١٤هـ)، في كتابه «المعيار المعرب» بكثير من هذه الفتاوى اللخمية في مختلف الأبواب الفقهية.

ولا أعلم أحداً جمعها في كتاب مستقل، كما لا أعلم أحداً جمع اختياراته الفقهية قبل هذا البحث المتواضع.

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ١٠٩.

وقد تتبعت هذه الفتاوى في كتاب «المعيار» ونظرت فيها فلاحظت أنها تتميز بالخصائص الآتية :

- ارتباطها بمختلف مجالات الحياة .

- اعتمادها على مختلف الأدلة الفقهية .

- اشتمالها على التوجيه والتعليل والتصحيح للروايات والأقوال، مما جعلها تطول في كثير من الأحيان .

- احتواؤها على سبب اختيار القول المفتى به في كثير من الحالات .

- اشتمالها على قدر كبير من الجرأة والصراحة، يظهر ذلك جلياً في فتاويه المرتبطة بالأوضاع السياسية[1] .

ويلاحظ أنَّ أبا الحسن لم يتعرض للنقد في فتاويه كما تعرض له في اختياراته الفقهية التي سجلها في كتابه التبصرة .

فقد لاحظت أنَّ المازري وابن بشير وغيرهما من منتقديه يركزون على آرائه في التبصرة، ولا يلتفتون إلى فتاويه المأخوذة عنه إلا نادراً جداً .

المطلب الثالث : التأليف :

لم يعرف لأبي الحسن مؤلف غير «التبصرة»، وقد أشرت سابقاً إلى أن نسبة كتاب «فضائل الشام» إليه غير صحيحة[2] .

---

(١) انظر : المعيار المعرب ٦/ ١٧٠ .

(٢) انظر : ص ١٢٤ .

وفي كتاب «التبصرة» تنعكس شخصية أبي الحسن الفقهية بكل أبعادها، فعلى الرغم مما وقع من خلاف حول تبييضه لها في حياته، فإن الشيء المؤكد الذي لا يختلف فيه هو أن أبا الحسن بلغ جهداً كبيراً في كتابتها، وأن ذلك استغرق منه مدة طويلة امتدت إلى ما قبل وفاته بقليل، وأن قارئها لا يسعه إلا أن يعترف له برسوخ القدم في الفقه الإسلامي عموماً، وفي المذهب المالكي على الخصوص أصولاً وفروعاً.

وبما أنني سأتحدث عن كتاب «التبصرة» بتفصيل في الباب الثاني، فسأكتفي هنا بذكر بعض أماكن وجودها داخل المغرب وخارجه.

- **داخل المغرب:**

- الخزانة العامة بالرباط: توجد بها نسخة تحت رقم ٦٤٥ق. تبتدئ بكتاب القضاء، وتنتهي بكتاب الجراح. وهي نسخة سليمة من الخروم على العموم، مكتوبة بخط جيد مقروء. وقد اعتمدت عليها كثيراً.

كما توجد بها نسخة أخرى مصورة على ميكروفيلم من الخزانة الحمزاوية، مسجلة تحت رقم ١٢١، تقع في أربعة أجزاء، تبتدئ بكتاب الطهارة وتنتهي بكتاب التفليس.

- خزانة القرويين بفاس: توجد بها خمسة أجزاء من التبصرة حسبما ذكره الأستاذ محمد العابد الفاسي في فهرس مخطوطات القرويين ١/ ٣٥٩ وما بعدها، وهي مسجلة تحت الأرقام الآتية: ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٩٥.

- خزانة تنغملت بناحية بني ملال: توجد بها نسخة من التبصرة تحت رقم ٥٢٠[١].

- خزانة المجلس الأعظم بتازة: يوجد بها أربعة أجزاء ضخمة من كتاب التبصرة مسجلة تحت الأرقام الآتية: ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٩[٢].

- خزانة المسجد الأعظم بمكناس: أخبرت بأن بها مجلدين من كتاب التبصرة مسجلين تحت الرقمين الآتيين: ١٩١، ١٥٣.

- خزانة ابن يوسف بمراكش: يوجد بها ثلاثة أجزاء كبار من كتاب التبصرة مسجلة تحت رقم ١١٢.

يضم الجزء الأول الذي يحمل رقم ١١٢ الكتب الآتية: بعض الأبواب من كتاب الجنائز، كتاب الصيام، كتاب الزكاة الأول، كتاب الزكاة الثاني، كتاب الصيد، كتاب الذبائح، كتاب العقيقة، كتاب المطاعم، كتاب الجراح، كتاب الجنايات، كتاب الديات، كتاب الأشربة.

ويضم الجزء الثاني المسجل تحت رقم ١١٢ (M ٣٢١١) الكتب الآتية: بعض الأوراق من كتاب السلم الأول، كتاب السلم الثاني، كتاب السلم الثالث، كتاب بيوع الآجال، كتاب بيع الغرر وشراء الغالب والبرنامج، كتاب الاستبراء، كتاب الصلح، كتاب الوكالة، كتاب العرايا، كتاب التجارة إلى

---

(١) وقد أخبرني الصديق الباحث أحمد وكاك بأن قيم الخزانة المذكورة أخبره كتابةً بأن هذه النسخة نقلت إلى الخزانة الملكية بالرباط.

(٢) وهي في مجملها متلاشية.

أرض الحرب، كتاب التدليس والعيوب، كتاب تضمين الصناع، كتاب الحوائج، كتاب القراض، كتاب بيع الخيار، كتاب المأذون له في التجارة، كتاب كراء الأراضي، كتاب الأقضية.

ويحتوي الجزء الثالث المسجل تحت رقم ١١٢ (M ٣١٩١) على الكتب الآتية: بعض الأبواب من كتاب التفليس، كتاب الصلح، كتاب الاستبراء، كتاب الجوائح، كتاب المساقاة، كتاب القراض، كتاب الشركة، كتاب تضمين الصناع، كتاب الجعل والإجارة، كتاب كراء الدور والأراضي، كتاب كراء الرواحل والدواب(١).

- الخزانة الحمزاوية: يوجد بها أربعة أجزاء من كتاب التبصرة، وصورتها على ميكروفيلم موجودة بالخزانة العامة بالرباط مسجلة تحت رقم: ١٢١ .

يحتوي الجزء الأول على الكتب الآتية: كتاب الطهارة، كتاب الصلاة الأول كتاب الصلاة الثاني، بعض الأبواب من كتاب الجنائز.

ويضم الجزء الثاني بقية كتاب الجنائز، كتاب الصيام، كتاب الاعتكاف، كتاب الزكاة الأول، كتاب الزكاة الثاني، كتاب الصيد، كتاب الذبائح، وكتاب الضحايا.

ويضم الجزء الثالث بعض الأوراق من التدبير، كتاب المكاتب، كتاب الولاء والمواريث، كتاب العتق الأول، كتاب العتق الثاني، كتاب أمهات الأولاد، كتاب الاستبراء، كتاب تضمين الصناع، كتاب المساقاة، كتاب الجوائح، كتاب الصلح، كتاب الرواحل والدواب، كتاب الجعل والإجارة.

---

(١) وقد أخبرني الباحث أحمد وكاك الذي اطلع على نسخة ابن يوسف بأن الجزء الثاني والثالث مبتوران ومتلاشيان جداً.

ويشتمل الجزء الرابع على بقية كتاب الجعل والإجارة، وكتاب الشركة، وكتاب القراض، وكتاب الأقضية، وكتاب الشهادات، وكتاب المأذون له التجارة، وكتاب المديان، وكتاب الحجر، وكتاب التفليس.

- خارج المغرب:

- الخزانة الوطنية بباريز: توجد بها قطعة من التبصرة مسجلة تحت رقم ١٠٧١ تقع في ٨٠٠ صفحة، وتضم الكتب الآتية: كتاب التفليس، كتاب اللقطة، كتاب المأذون له في التجارة، كتاب حريم الآبار، كتاب الشفعة، كتاب الهبة، كتاب الحبس والصدقة، كتاب الوصايا الأول، كتاب الوصايا الثاني، كتاب العتق الأول، كتاب العتق الثاني، كتاب التدبير، كتاب المكاتب، كتاب أمهات الأولاد، كتاب الولاء والمواريث، كتاب بيع الآجال، كتاب البيوع الفاسدة، كتاب العرايا، كتاب التدليس بالعيوب، كتاب البيع على الصفة، كتاب الاستبراء، كتاب بيع الخيار، كتاب المرابحة، كتاب الصلح، كتاب المسافاة، كتاب الجوائح، كتاب الشركة، كتاب الجعل والإجارة، كتاب الرواحل والدواب، كتاب القراض، كتاب الأقضية، كتاب الشهادات، كتاب الحجر، كتاب الحمالة والحوالة، كتاب الرهن، كتاب الغصب، كتاب الاستحقاق، كتاب القسمة، كتاب الوديعة، كتاب العارية، كتاب القطع في السرقة، كتاب المحاربين، كتاب الرجم، كتاب القذف، كتاب الجنايات، كتاب الجراح، كتاب الديات.

- معهد المخطوطات العربية: توجد به أجزاء من التبصرة تحت الأرقام الآتية: ٣٧، ٥٢٩، ١٢١٥ (فقه مالك).

- المكتبة العاشورية بتونس: يوجد بها جزءان من كتاب التبصرة، مسجلين تحت الرقمين الآتيين: ف أ، ٢٢٦، ف أ، ٢٢٧ .

- جامعة أم القرى: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، والنسخ الموجودة بهذا المعهد مصورة من خزانة القرويين وهي تحمل الأرقام الآتية: ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٣، ٢٩٤، (فقه مالكي).

- مكتبة الدولة ببرلين: أشار بروكلمان إلى وجود نسخة من التبصرة في الخزانة المذكورة تحت رقم ٣١٤٤، لكن المعلقين على كتاب العمر: محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش خطأاه في ذلك[1].

***

---

(١) جاء في كتاب العمر (التعليق): وقد راجعناه على كتاب مخطوطات مكتبة الدولة في برلين الذي وضعه المستشرق «آلورد»، ولم نجد تحت هذا الرقم ما أشار إليه بروكلمان، وحتى فهارس المؤلفين والمصنفات التي ألحقها «آلورد» بفهارسه (المجلد العاشر) لا يوجد فيها ما يشير إلى التبصرة وإلى مؤلفها اللخمي. كتاب العمر ٢/ ٦٨٣ .

المبحث الثالث
تلاميذه ومكانته في المذهب المالكي واتجاهه العقدي ووفاته

المطلب الأول: تلاميذه:

سبقت الإشارة إلى أن أبا الحسن اللخمي كانت إليه الرحلة من أقطار المغرب، وأن جماعة من الصفاقسيين وغيرهم تفقهوا به، وأخذوا عنه[١]. غير أن المصرح بأسمائهم في كتب التراجم عدد قليل، وهم:

أ- أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري المتوفى سنة (٥٣٦هـ) وهو من أشهر تلاميذ أبي الحسن وأكثرهم أخذاً عنه، وأطولهم ملازمةً له[٢].

ب- أبو الفضل يوسف بن محمد التوزري الشهير بابن النحوي، ولد بتوزر[٣] سنة (٤٣٤هـ) وبها نشأ وتعلم على بعض الشيوخ الذين التجئوا إلى هذه البلدة أثر الخراب الذي أصاب القيروان بسبب هجوم أعراب بني هلال عليها. ثم انتقل إلى قلعة بني حماد[٤]. وبقي بها مدة ثم رحل إلى إفريقية طلباً للعلم فقصد أبا الحسن اللخمي بعد استقراره بصفاقس باعتباره شيخ الفقهاء في وقته.

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ١٠٩ وشجرة النور ١١٧ رقم ٣٢٦.
(٢) انظر ترجمة أبي عبد الله المازري مفصلة في الباب الثالث، الفصل الأول المبحث الأول.
(٣) بفتح التاء وسكون الواو وفتح الزاي مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب: معجم البلدان ٢/ ٥٧.
(٤) مدينة متوسطة بين أكم وأقران لها قلعة عظيمة على رأس جبل، وكانت قاعدة ملك بني حماد الصنهاجيين. معجم البلدان ٤/ ٣٩٠.

وتذكر كتب التراجم أن ابن النحوي لما وصل إلى أبي الحسن اللخمي سأله: ما جاء بك إلي؟ قال ابن النحوي: جئت لأستنسخ كتابك المسمى بالتبصرة [(١)]، فقال له: تريد أن تحملني في كفك إلى المغرب، يشير إلى أن علمه كله فيها [(٢)].

وقد لازم ابن النحوي أبا الحسن مدة درس عنه خلالها الفقه المالكي وصحيح الإمام البخاري، ثم رجع إلى بلاده توزر، فلم يجد الظرف مناسباً للاستقرار بها فغادرها وتوجه إلى سجلماسة، وبقي بها مدةً يدرس الأصول والعقيدة ثم غادرها مطروداً من قبل ابن بسام أحد رؤساء البلد، أخرجه من المسجد بدعوى أنه قد أدخل على أهل البلد علوماً جديدةً لا يعرفونها.

فتوجه إلى فاس واستقر بها وأخذ ينشر علمه، غير أن ابن دبوس قاضي المدينة لم يكن مرتاحاً - فيما يبدو- لوجود ابن النحوي بفاس وتدريسه بها فأمر بإخراجه منها فعاد إلى قلعة بني حماد وبقي بها إلى أن توفي سنة ٥١٣ هـ، وقبره بها معروف بجنوبي سهول بجاية يزوره الناس ويتبركون به.

وقد كان ابن النحوي من الفقهاء النظار في المذهب المالكي، وله دراية واسعة بأصول الفقه وأصول الدين ودروسه فيها مشهورة بفاس وسجلماسة وقلعة بني حماد، قال عنه محمد بن حماد، الصنهاجي: كان أبو الفضل ببلادنا المغربية كالغزالي في العراق علماً وعملاً [(٣)].

(١) زاد صاحب العمر: ولأروي عنك صحيح البخاري. العمر ٢/ ٤٦٤.
(٢) جذوة الاقتباس، القسم الثاني ٥٥٣، والفكر السامي ٢/ ٢١٥.
(٣) كتاب العمر ٢/ ٤٦٦.

وكانت له عناية كبيرة بالتصوف دراسة وممارسة[1]، وكان مغرماً بكتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، ولما أفتى علماء المغرب بإحراق الكتاب المذكور بإيعاز من السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، انتصر ابن النحوي للغزالي وكتابه، وكتب إلى السلطان في شأن ذلك[2].

وكان ابن النحوي ينشد في تهجده:

لبست ثوب الرجا والنَّاس قد رقدوا
وقلت: يا سيدي يا منتهى أملي

أشكو إليك أموراً أنت تعلمها
وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد

يا مَنْ عليه لكشف الضر أعتمد
ما لي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي للضر مشتكياً
إليك يا خير من مدت إليه يد

وهو صاحب قصيدة «المنفرجة» المشهورة، والتي مطلعها:

اشتدي أزمة تنفرجي
قد آذن ليلك بالبلج[3]

---

(١) وقد ذكره ابن الزيات في كتابه «التشوف إلى رجال التصوف»، وخصص له ترجمة حافلة ص ٩٥-١٠١ .

(٢) شجرة النور ١٢٦ رقم الترجمة ٣٦٥ .

(٣) وقد شرح هذه القصيدة جماعة من العلماء، منهم: أبو العباس أحمد بن =

ج- أبو الطيب الصفاقسي: سعيد بن أحمد بن سعيد الصفاقسي الينونشي[1]، درس على أبي الحسن اللخمي بصفاقس ثم رحل إلى بلاد الأندلس والتقى بجماعة من شيوخها، وأخذ عن بعض العلماء الأندلسيين من أشهرهم القاضي عياض الذي ذكره في شيوخه، وخصص له ترجمة ضافية في كتابه «الغنية» وقال عنه: وكان من المحققين في الفقه والكلام، من أهل البلاغة والتأليف والنظم والنثر، تفقه بأبي الحسن اللخمي وطبقته، كان من أهل الخير التام والفضل الكامل، وسلوك طريق الزهد والورع والتقلل، متواضعاً حسن الصحبة كريم العشرة، يزداد على الأيام فضلاً، وشهر اسمه وبعد صيته عند السلطان وغيره، فلم يزدد إلا خيراً وانقباضاً وتواضعاً، ولم يتشبت بشيء من أمور الدنيا وخططها إلى أن توفي - رحمه الله - من سقطة سقطها من درج منزله في صدر رجب سنة إحدى وخمسمائة»[2].

وقد صحبه في هذه المرحلة أخواه محمد ومحرز واستقروا في آخر المطاف بأغمات، نزلوا في الموضع المعروف بإيغل، قال ابن الزيات: نزلوا بأغمات وريكة بالموضع المعروف بإيغل، وكانوا علماء فضلاء، فأخفوا أنفسهم وكانوا يحضرون مجالس العلم فيستمعون ولا يتكلمون، إلى أن

= عبد الرحمن النقاوسي (ت ٨١٠هـ)، وعلي بن يوسف البصري، وأبو الفضل محمد بن خليل البصروي الشافعي، ومحمد بن محمد الدلجي، سمى شرحه: «اللوامع البهجة بأسرار المنفرجة ...». انظر شراح هذه القصيدة وأسماء شروحهم وأماكنها في كتاب العمر ٢/ ٤٦٨-٤٧٢ .

(١) نسبة لينونش: قرية من قرى صفاقس.

(٢) الغنية ٢٧١ رقم ٩٠ .

وصلت كتب من صفاقس إلى أهل أغمات ينبهونهم على قدرهم، فأخذوا عنهم ونفع الله بهم ... وكان أبو الطيب أعلمهم[1].

وقد عاش أبو الطيب عزباً، فلما قيل له: هلا تزوجت؟ قال: ما رغبت عن الزواج عجزاً عنه، وإنِّي لفحل من الفحول وقوي الجماع، فما منعني منه إلا قوله تعالى في الزوجات ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩]، فأنا أخاف أن لا أقدر على معاشرة الزوجة بالمعروف[2].

د- أبو علي الكلاعي: الحسن بن عبد الأعلى، نشأ بصفاقس ودرس على أبي الحسن اللخمي، وعليه كان اعتماده، ثم رحل إلى بلاد المغرب والأندلس، وتجول في أقطارهما، قال عنه عياض: من أهل صفاقس سكن المغرب كثيراً، والأندلس، ودرس في بلاد المصامدة واستوطن بلدنا - يعني سبتة - أخيراً وشاوره بها بعض القضاة، وأريد على قضاء الجزيرة فامتنع، وكان منقبضاً فاضلاً لم يجب إلى التدريس ولا تصدر للفتيا[3].

ومن شيوخه إضافة إلى أبي الحسن اللخمي، أبو عبد الله محمد بن سعدون المتوفى سنة (٤٨٥هـ)[4] وأبو علي الغساني الجياني (ت ٤٩٨هـ)[5].

---

(١) التشوف إلى رجال التصوف، ١٦١ .

(٢) نفس المصدر ١٦١٣، والإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ١/ ٢٣١-٢٣٢ .
وعلى كل حال لا ينهض هذا التعليل وحده عذراً في ترك سنة الزواج، وأنا لا أذكر هذا الموقف لأبي الطيب في سياق مدحه أو الثناء عليه، وإنما أذكره باعتباره من الجوانب التي تساهم في التعريف به فقط.

(٣) الغنية ص٢٠٤ رقم ٤٩ .

(٤) ترجمته في معالم الإيمان ٣/ ١٩٨ .

(٥) ترجمته في شجرة النور ١٢٣ رقم ٣٥٥ .

ومن أشهر من أخذ عنه القاضي عياض قال عنه في «الغنية»: «تكررت عليه وجالسته كثيراً، وأخذت عنه غير شيء وانتفعت به»[1]، وقد كان أبو حسن الكلاعي «محققاً فهماً فقيهاً أصولياً متكلماً عارفاً بعلم الهندسة والحساب والفرائض وغير ذلك من المعارف»[2].

استقر في أواخر عمره بأغمات، وبها توفي في محرم سنة خمس وخمسمائة (٥٠٥هـ)[3].

و- ابن الضابط: أبو يحيى زكرياء بن الضابط، درس على أبي الحسن اللخمي وعليه كان اعتماده، وكان معاصراً لأبي عبد الله المازري، وقد بقي بصفاقس لم يرحل منها، وبعد وفاة شيخه أبي الحسن اللخمي تصدر للإفتاء[4].

وقد كان ابن الضابط من الفقهاء المشهورين بمناطق الساحل الإفريقي خصوصاً بعد وفاة شيخه أبي الحسن وتوليته منصب الإفتاء، ولعلَّ هذه الشهرة هي التي دفعت النصارى (النرمان) إلى قتله عند احتلالهم لبلاد

---

(١) ص ٢٠٤ رقم الترجمة ٤٩ .

(٢) الغنية ٢٠٤، والتكملة لكتاب الصلة ١/ ٢١٧ .

(٣) ترجمته في الغنية للقاضي عياض ٢٠٤ . والتكملة لكتاب الصلة ١/ ٢١٧، والإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ٣/ ١٣١ .

(٤) ومن فتاويه أنه كان يفتي بأنَّ الجهل بالأحكام وما توجبه السنة عذر مقبول على الصحيح فيما عدا الحدود . نزهة الأنظار ٢/ ٢٧٩ .

الساحل، اقتحموا عليه منزله فوجدوه يقرأ القرآن فقتلوه، وذلك في حدود سنة (٥٤٣هـ)، ودفن بصفاقس برأس زقاق الذهب، وهي منطقة تقع غربي المدينة، وضريحه بها مشهور مزار متبرك به[١].

وهناك تلميذان آخران ذكر اسمهما في كتب التراجم ولم أقف لهما على ترجمة وهما: عبد الحميد الصفاقسي، وعبد الجليل بن مفوز.

المطلب الثاني: منزلته في المذهب المالكي:

يعد أبو الحسن اللخمي أحد شيوخ المذهب المالكي النظار، وأعلامه الكبار الذين استوعبوا فروعه وأصوله، ولم يختلف مترجموه في إثبات صفة الإمامة له في المذهب بإفريقية في وقته، وإضفاء صفات الفقيه النظار المحقق عليه.

قال عنه القاضي عياض - وهو من أقرب الناس عهداً به -: «وكان أبو الحسن فقيهاً متفنناً، ذا حظ من الأدب والحديث، جيد النظر حسن الفقه جيد الفهم، كان فقيه وقته، وأبعد الناس صيتاً في بلده، وبقي بعد أصحابه فحاز رئاسة بلاد إفريقية جملة»[٢]، ووافقه على ذلك كل من عبد الرحمن الدباغ في «معالم الإيمان»[٣]، وإبراهيم بن فرحون في «الديباج المذهب»[٤]، ونقل عبارته بالحرف تقريباً.

---

(١) نزهة الأنظار ٢/ ٢٧٩ .
(٢) ترتيب المدارك ٨/ ١٠٩ .
(٣) ٢/ ١٠٤ .
(٤) ٣/ ١٩٩ .

ووصفه محمد مخلوف بـ« الحافظ العامل العمدة الفاضل، رئيس الفقهاء في وقته، وإليه الرحلة »[1].

والنظر في كتابه التبصرة يؤكد تلك الصفات كلها، ويقنع القارئ البصير بالاعتراف له بالتمكن في الفقه أصولاً وفروعاً، وبالاجتهاد الواسع في المذهب المالكي على الخصوص.

إنَّ تعامله مع المذهب المالكي لا يقل منزلةً عن تعامل مجتهديه الكبار معه، فهو يؤصل، ويعلل، ويخرج، ويفرع، ويقيس، وينظر، ويصحح، ويضعف، وينتقد، وينظر في الدليل ويناقشه، ويوضح وجه الدلالة فيه، ويناقش فهوم غيره له، وينتقد الفروع التي لا يراها منسجمة مع أصولها ومستنداتها، ولا يبالي بمخالفة أي كان من علماء المذهب أو غيرهم حين لا يظهر له وجه الصواب في قوله، بل لا يبالي بمخالفة المذهب جملة والخروج عنه إذا لم يترجح لديه الدليل الذي استند إليه أئمته، وهذا التصرف مطرد عنده في تبصرته[2].

وعلى الرغم من انتقاد بعض العلماء له في بعض اجتهاداته، واستدراكهم عليه في بعض آرائه واختياراته، فإنَّ ذلك لم يسلب عنه صفة الاجتهاد التي تظهر بجلاء في دراسته للمذهب المالكي على الخصوص[3].

ومما يؤكد علو منزلته في المذهب المالكي، أنه يعد صاحب القول فيه، إذ

---

(١) شجرة النور ١١٧ رقم ٣٢٦.

(٢) انظر نماذج من مخالفة أبي الحسن للمذهب وخروجه عنه في الباب الثاني.

(٣) سأزيد هذه المسألة توضيحاً وأؤكدها بالشواهد والأدلة في الباب الثاني.

لا يختلف من جاء بعده من فقهاء المذهب في اعتبار اختياره من الأقوال المعول عليها في المذهب في النقل والإفتاء(١).

وحين صدر من ابن عرفة (ت ٨٠٣) ما يفهم منه الحط من قيمة أقوال أبي الحسن، وقدم عليها أقوال ابن رشد الجد بإطلاق، وقال قولته المشهورة: «لا يجوز لأحد أن يقف في مسألة على نص ابن رشد ويأخذ فيها بكلام اللخمي». لقي معارضة شديدة، وانتقد في ذلك. قال أحمد بابا التنبكتي: «وهذا الذي قاله ابن عرفة وإن كان له وجه، إلا إنَّه قد لا يوافق عليه، فقد مشى خليل في مختصره في مواضع عديدة على كلام اللخمي دون ابن رشد، مع وقوفه على كلامه في ذلك الوضع لنقله له في توضيحه»(٢).

وسأزيد هذه المسألة إيضاحاً عند الحديث عن المقارنة بين ابن رشد واللخمي في الباب الثالث(٣).

المطلب الثالث: اتجاهه العقدي:

في عهد أبي الحسن اللخمي كان المذهب المالكي بإفريقية قد ارتبط بالمذهب الأشعري ارتباطاً وثيقاً، وكان المالكية يتبنون العقيدة الأشعرية، ويدرسونها وينظرون لها.

---

(١) انظر: مقدمة مختصر خليل.

(٢) نيل الابتهاج ص ١٧٢، والفكر السامي ٢/ ٢١٩.

(٣) انظر: ص ٤٨٢.

غير أنَّ أبا الحسن لم يكن - فيما يبدو- من المتحمسين للدفاع عن هذا الاتجاه في فهم العقيدة، وكان يميل كثيراً إلى طريقة السلف في فهمها، ومما يدل على ذلك أن تلميذه أبا عبد الله المازري سئل مرة عن قوله صلى الله عليه وسلم: «ما سمع المؤذن إنس ولا جن ولا رطب ولا يابس إلا شهد له يوم القيامة»[1]، هل يدل على أنَّ الجمادات تسبح؟ فأجاب: إنَّ الذي عند أهل الأصول أنَّ الجمادات لا تسبح، ويستحيل أن يكون الجماد يعقل شيئاً من ذلك، ثم قال: وقد ذكرت شيئاً من ذلك عند اللخمي، وقلت: إنَّ القاضي ابن الطيب (يعني الباقلاني) يمنع من هذا. فقال لي: قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، يدلُّ على أنَّ الجمادات كلها تسبح، وأنكر قول القاضي غاية الإنكار، وقال لي: خلوا ما أنتم عليه من كلام الأصوليين، - وكان رحمه الله يستثقل كلام الأصوليين -، فقال له عبد الجليل (ابن مفوز): فهذه الحصا تسبح؟، فقال: تسبح بالغيظ. فسكت عبد الجليل لما رأينا من غيظه»[2].

فقد اختار أبو الحسن في هذه المسألة مذهب السلف[3]، وأنكر قول الباقلاني وغيره المعبر عن رأي الأشاعرة.

---

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأذان الباب الخامس: فضل الأذان وثواب المؤذنين، الحديث الأول رقم ٧٢٣، ١/ ٢٣٩، ط دار إحياء الكتب العربية تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) المعيار المعرب ١٢/ ٣٤٥.

(٣) قال الإمام البغوي في تفسيره «معالم التنزيل» - بعد ما ذكر بعض الأقوال في تفسيره الآية-: والأول (أي أن الجمادات تسبح) هو المنقول عن السلف، ثم قال: واعلم =

وقول المازري: إنَّ أبا الحسن أنكر قول الباقلاني غاية الإنكار وقال: خلوا ما أنتم عليه من كلام الأصوليين، وقوله: كان رحمه الله يستثقل كلام الأصوليين[1]، يدلُّ على أنَّ أبا الحسن لم يكن ملتزماً بمذهب الأشاعرة.

ولعلَّ هذا الموقف الذي اتخذه أبو الحسن إزاء المذهب الأشعري من الأسباب التي دفعت شيخه أبا القاسم السيوري إلى الطعن عليه، وإساءة الرأي فيه[2]، وجعلت أبا عبد الله المازري يرتبط بشيخه عبد الحميد بن الصائغ (ت ٤٨٦هـ) أكثر من ارتباطه بأبي الحسن اللخمي، لأن ابن الصائغ كان أشعرياً، درس المذهب الأشعري على أبي عمران الفاسي بالقيروان، وكان ينشره بالمهدية بعد انتقاله إليها، وأبو عبد الله المازري كان أشعريا أيضاً، بل كان من كبار علماء الأشاعرة النظار، وقد تعلم مبادئ هذا الاتجاه على يد شيخه ابن الصائغ[3].

المطلب الرابع: وفاته ومكان دفنه:

توفي أبو الحسن اللخمي - رحمه الله - سنة ثمان وسبعين وأربعمائة

= أن لله تعالى علماً في الجمادات لا يقف عليه غيره، فينبغي أن يوكل علمه إليه. ٥/ ٢٦٨ . وهو الذي رجحه أبو عبد الله القرطبي في أحكامه ٥/ ٢٦٨ . وشهره ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٥ .

(١) المراد بالأصوليين في النص علماء أصول الدين (أي العقيدة)، لا علماء أصول الفقه.

(٢) تراجم المؤلفين التونسيين ٤/ ٢١٤ .

(٣) فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب ص٢٩ .

(٤٧٨هـ) [١] بمدينة صفاقس، ودفن خارج سور المدينة في الجبانة الشرقية بين طريق العين والأفران[٢].

وقبره مشهور مزار يعرفه الخاص والعام، وقد بنى عليه مراد باي (القرن الحادي عشر الهجري) قبة ضخمة، وهي أول قبة بنيت بمقبرة صفاقس[٣]، وعلى باب القبة في العتبة العليا نقشت الأبيات الآتية:

هلال تبدى في علا الأفق ساطع
وأشرق عنه الكون كالبرق لامع
أمين كريم علي زكي الفواضل
مراد مراد الباي في العز طالع
فأحيي ضريح الحبر علمه ظاهر
أبي الحسن اللخمي يكن له شافع
فيا ربنا أبق الباي واحفظه دائماً
فكل كريم في حماه يراتع
وبلغه في نجليه ملكاً ورفعة
وقلده سيف النصر رحب واسع[٤]

---

(١) وما ذكره ابن فرحون في الديباج ٢/ ١٠٥ أنه توفي سنة ٤٩٨ فغير صحيح ولعله تصحيف. انظر: جذوة الاقتباس لابن القاضي ٢/ ٤١٤.

(٢) تراجم المؤلفين التونسيين ٤/ ٢١٨.

(٣) تاريخ صفاقس ١/ ١٨٦.

(٤) نزهة الأنظار ٢/ ١٧٦، وفي الأبيات بعض المخالفات للوزن العروضي مما يعني أن كاتبها ليس خبيراً بالشعر وليس من أهله.

وهـذه القـبـة تضـم بالإضـافـة إلى قبر أبي الحسـن اللخـمي، قبر الشيخ عبد الجبار الفرياني يقع خلف ضريح أبي الحسن متصلاً به، وفي مؤخر القبة قبر عليه شباك في الركن الشرقي الشمالي لبعض الولاة، أوصى بأن يدفن هناك رجاء نيل بركة الشيخ اللخمي وأن يعفو الله عنه، لكن رؤي اللخمي في المنام فقال: فرقوا بيني وبينه، فجعل ذلك الشباك حاجزاً بينهما [1].

---

(١) نزهة الأنظار ٢/ ٢٧٧ .

المصادر والمراجع التي تحدثت عن أبي الحسن اللخمي:

١- ترتيب المدارك للقاضي عياض ٨/ ١٠٩ ط وزارة الأوقاف المغربية ١٩٨٣ .

٢- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد الدباغ، وأبي الفضل بن ناجي ٣/ ١٩٩ الناشر المكتبة العتيقة بتونس، ومكتبة الخانجي بمصر، تحقيق محمد ماضور.

٣- الديباج المذهب لإبراهيم بن فرحون ٢/ ١٠٤-١٠٥ ط مكتبة دار التراث القاهرة، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور.

٤- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لأحمد بن القاضي ٢/ ٤١٣، الناشر دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط ١٩٧٤ .

٥- الوفيات لابن قنفذ ص ٢٥٨، من منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت بتحقيق عادل نويهض.

٦- نور البصر في شرح خطبة المختصر ص ٢٠٩ (ط حجرية)

٧- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف ص ١١٧ رقم الترجمة ٣٢٦ الناشر دار الكتاب العربي لبنان.

٨- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار لمحمد مقديش ٢/ ٢٧٦-٢٧٧ تحقيق علي الزواوي ومحمد محفوظ ط دار الغرب الإسلامي.

٩- الرحلة الورثلانية للحسين بن محمد الورثيلاني ص ٤٣٠ ط مطبعة بيير فونتانا- الجزائر ١٩٠٧ .

(تحدث عن أبي الحسن أثناء حديثه عن السند العلمي لبعض فقهاء إفريقية). =

= ١٠- رحلة العبدري ص ٦٧ منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، بتحقيق محمد الفاسي.
١١- فهرست ابن عطية ص٤٣ تحقيق محمد أبو الأجفان، ومحمد الزاهي، ط دار الغرب الإسلامي ١٩٨٠ .
١٢- فهرست ابن غازي المكناسي المسمى "التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد" ص ٦٧ تحقيق محمد الزاهي ط دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء ١٩٧٩ .
١٣- أزهار الرياض ٣/ ٢٤ . طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية والإمارات العربية.
١٤- الحلل السندسية في الأخبار التونسية لمحمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج ١/ ٣٢٢-٣٢٣، تحقيق محمد الحبيب الهيله، ط دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى ١٩٨٥ .
١٥- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي ٢/ ٢١٥ ط دار التراث القاهرة.
١٦- مواهب الجليل في شرح مختصر خليل لأبي عبد الله الحطاب. ١/ ٣٥، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٧٨ .
١٧- هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي ١/ ٦٢٢ ط دار الكتب العلمية- بيروت.
١٨- المحاضرات المغربيات لمحمد الفاضل بن عاشور ص ٧٩-٨١ .
١٩- تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ ٤/ ٢١٤-٢١٩ ط دار الغرب الإسلامي.
٢٠- مباحث في المذهب المالكي بالمغرب للأستاذ عمر الجيدي ص ٤٩ . ط مطبعة المعارف الجديدة ١٩٩٣ .
٢١- تاريخ صفاقس لأبي بكر عبد الكافي ١/ ١٤١، الناشر التعاضدية العمالية للطباعة والنشر بصفاقس.
٢٢- كتاب العمر لحسن حسني عبد الوهاب ٢/ ٦٨٢-٦٨٤ مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، ط دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠ .